معارك إسلامية خالدة

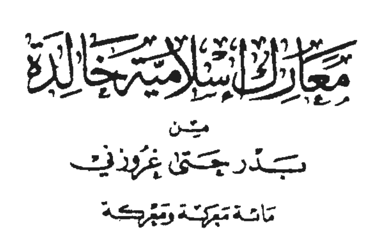
من

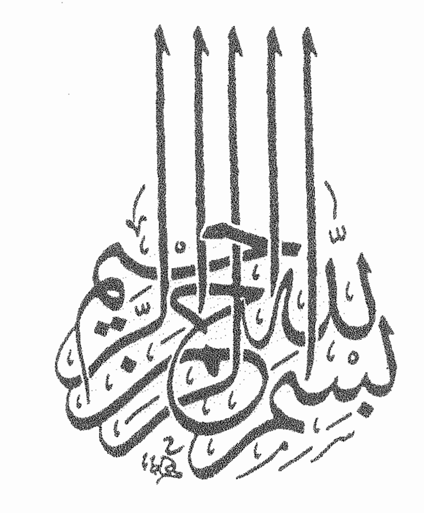
بدر حتى غروزني

مائة معركة ومعركة

محمد منير الجنباز




معارك إسلامية خالدة
من
بدر حتى غروزني
مائة معركة ومعركة


بسم الله الرحمن الرحيم



معارك إسلامية خالدة

من بدر حتى غروزني

مائة معركة ومعركة

محمد منير الجنباز

مكتبة التوبة



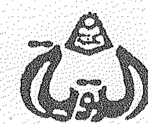
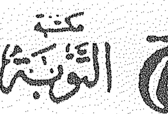
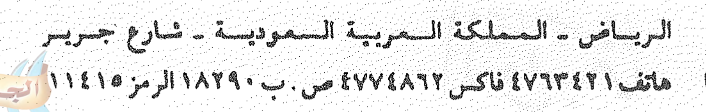


ح مكتبة التوبة ، ١٤٢٨ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الجنباز ، محمد منير
معارك إسلامية خالدة من بدر حتى غروزني : مائة معركة ومعركة /
محمد منير الجنباز - ط ٢ - الرياض ، ١٤٢٨هـ
٢٠٠ ص ، ١٧×٢٤سم
ردمك : ٨ - ٧١ - ٧٠٤ - ٩٩٦٠
١ - المعارك الإسلامية - تاريخ ٢ - غزوات النبي صلى الله عليه وسلم
٣ - العالم الإسلامي - تاريخ أ - العنوان
ديوي ٩٥٣ ٤٤٢٢ / ١٤٢٨

رقم الإيداع : ٤٤٢٢ / ١٤٢٨
ردمك : ٨ - ٧١ - ٧٠٤ - ٩٩٦٠

الطبعة الثانية
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م




الرياض - المملكة العربية السعودية - شارع جرير
هاتف ٤٧٦٣٤٢١ فاكس ٤٧٧٤٨٦٢ ص.ب ١٨٢٩٠ الرمز ١١٤١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد رسول الله.. وبعد:

فقد يسر الله لي على مدى سنوات عديدة أن أطالع أمهات كتب التاريخ الإسلامي، وأن أتعرف على الأحداث المهمة في تاريخ أمتنا الإسلامية، خصوصًا معاركها المظفرة مع أعدائها، ورأيت أن أقدمها باختصار، ليتسنى مطالعتها في كتاب واحد بسهولة ويسر، فلا يحرم من متعة الاطلاع عليها أولئك الذين لا يصبرون على الخوض في كتب الأمهات، لأن تلك الكتب لا يقصدها إلا الباحثون المتخصصون، وكتابي هذا يقرب المعلومة التاريخية مختصرًا الوقت والجهد، ويعطي صورة صحيحة لأشهر المعارك الإسلامية الخالدة على مر العصور للتاريخ الإسلامي، أي من المعركة الأم غزوة بدر، وحتى أشهر المعارك في العصر الذي نعيشه الآن، فبلغت حسب اختياري مائة معركة ثم رأيت أن أختمها بمعركة غروزني التي أخذت حيزًا مهمًا من صفحات الجرائد ومحطات الإذاعة المسموعة والمرئية، وسطر فيها المجاهدون الشيشان أروع أمثلة البطولة ضد الغزاة الروس، فتم في هذا الكتاب من المعارك مائة معركة ومعركة شهيرة خالدة، ومع كل هذا الجهد المبذول، فإنني لا أدعي تغطية كل المعارك التي حدثت على مر التاريخ أو حصرها وحسبي أنني توخيت الأهمية فيها، فقد تكون هناك معارك مهمة ومصيرية أكثر من بعض التي اخترتها، ولكن المؤرخين لم يفصّلوا فيها التفصيل الذي يتناسب مع منهج هذا الكتاب فأضربت عن ذكرها، فقد ورد على سبيل المثال خبر عن معركة كبيرة في الأندلس سنة ١٧٧ هـ في كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، ولكن ما ذكره عنها من معلومات كانت غير كافية حيث قال: «وفيها سير هشام صاحب



الأندلس جيشًا كثيفًا واستعمل عليهم عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث، فدخلوا بلاد العدو فبلغوا «أربونة» و«جرندة» وكان بها حامية للفرنج فقتل رجالها وهدم أسوارها وأبراجها ورجع سالماً.. وهي من أشهر مغازي المسلمين بالأندلس» وورد مثل هذا شيء كثير عن الرشيد والمأمون في المشرق وعن القائد المنصور بن أبي عامر في الأندلس عبارات مثل: إنهم أوغلوا في أرض العدو وهدموا وأسروا وفرقوا الجموع في الصوائف ثم عادوا إلى ديارهم منصورين مظفرين، فمثل هذه المعارك ينقصها تفصيلات كثيرة.

أما منهجي في اختيار المعارك فكان على أساس الأهمية المصيرية لهذه المعارك، بحيث أتناول المعركة باختصار غير مخل ذاكرًا أسماء القادة من الطرفين وأعداد الجنود ثم نتيجة المعركة وأعداد القتلى من الطرفين أيضًا، كما اخترت من الأرقام أثبتها وأقربها إلى شهرة المعركة، فعلى سبيل المثال ذُكرت أرقام متباينة عن معركة القادسية من حيث عدد جيش المسلمين وجيش الفرس، والمعركة كما هو معلوم معركة فاصلة لذلك لم أعتمد الأرقام المتواضعة لأنها لا تتناسب مع أهمية هذه المعركة التي تحطمت فيها قوة الفرس، فقد ذكر الطبرى في صفحة ٤٨٧ جزء ٣، قال: «فجميع من شهد القادسية بضعة وثلاثون ألفًا - أي من المسلمين -» وفي صفحة ٤٩٦ قال: قال أبو وائل: «جاء سعد حتى نزل القادسية ومعه الناس، قال: لا أدري لعلنا لانزيد على سبعة آلاف أو نحو من ذلك والمشركون ثلاثون ألفًا أو نحو من ذلك».

وفي صفحة ٥٠٥ قال: «خرج رستم في عشرين ومائة ألف كلهم متبوع وكانوا بأتباعهم أكثر من مائتي ألف» وفي الصفحة نفسها: «أن رستم زحف لسعد وهو بالقادسية في ستين ألف متبوع والمتبوع هنا: من له أتباع من الخدم والعبيد لخدمته وإعداد زاده وسلاحه وقد يقاتلون وقت الحاجة.

ونظرًا لضخامة المعركة ومصيريّتها واستمرار القتال فيها أربعة أيام متواصلة فقد اخترت ماورد في الصفحة ٤٩٦ بالنسبة لأعداد جيش المسلمين وما ورد في الصفحة ٥٠٥ بالنسبة لأعداد جيش الفرس.



ولقد رتبت المعارك حسب تسلسلها التاريخي مع إعداد فهرس لها، كما اخترت عددًا من المعارك التي هُزم فيها المسلمون، وذلك لشهرتها أولاً؛ وللعبرة والموعظة التي نستفيدها منها ثانيًا، كما في معركة أحد وبلاط الشهداء والعقاب.

ومن تتبع هذه المعارك يلاحظ أن أكثر المعارك عددًا وأشدها ضراوة كانت بين النصارى والمسلمين في بلاد الشام والأندلس والمغرب، بينما كانت معارك المسلمين مع أعدائهم من غير النصارى أقل عددًا، وسرعان ما انتهت وتلاشى خطرهم كما في معاركهم مع الفرس، أو الترك، أو الهنود، أو المغول، حيث تحولت مناطق هؤلاء إلى مناطق إسلامية حملوا هم أنفسهم عبء الدفاع عن الإسلام فيها حتى المغول الذين ظهروا بأعتى أنواع الشر والقتل، استمر خطرهم لفترة محدودة، ثم تلاشى خطرهم ودخل أحفادهم في الإسلام، وأصبحوا من حماته كما في المشرق والهند.

ويبقى النصارى خصمًا عنيدًا للمسلمين طوال فترة التاريخ، فالمعارك معهم من سنة ٧ هجرية كما في غزوة مؤتة ولا تزال حتى هذا العصر على أشدها، كما في معارك غروزني والمعارك في البوسنة والهرسك، وكان من المفترض أن يكون النصارى أسرع الأمم إلى اعتناق الإسلام، لأنهم أهل ديانة سماوية، فإذا بالمغول والتتار الذين كانت لهم قلوب أقسى من الصخر تلين بعد حين، ويدخلون في دين الإسلام، وهؤلاء جندوا كل قواهم ووسائلهم المادية لمحاربة الإسلام ظلمًا وعدوانًا، يدفعهم إلى ذلك الجحود بما يؤمنون به، والتعنت والغطرسة والمصالح الدنيوية، فحجبوا بفعلهم هذا عن عيونهم نور الإسلام، فعموا وصموا فأهلكوا الحرث والنسل بوحشيتهم التي لا توصف، ونبذوا دعوة القرآن لهم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].

ويبقى المسلمون طوال تاريخهم صورة مشرفة لأنصار الحق، فما عرف التاريخ فاتحًا أرحم من العرب، إنهم أهل الرحمة والرأفة والعدالة، فما فتحوا بلدًا أو

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٦٤.

حلوا في مدينة إلا وحافظوا على شعبها وتراثها، ووفوا بما وعدوا أو عاهدوا عليه، هذه سيرتهم يوم فتح مكة، وبعدها عند فتح دمشق والقدس ومدن الأندلس والقسطنطينية وبلغراد، ولم ينتقموا عندما استردوا القدس وطرابلس ممن أجروا دماد المسلمين أنهاراً يوم استولوا عليها.. إنهم حملة الإسلام وكفى..

دين الله الذي ارتضاه لعباده.

محمد منير الجنباز



في الطريق إلى بدر

سببها: لما سمع رسول الله ﷺ خبر قافلة لأبي سفيان مقبلة من الشام؛ ندب إليها المسلمين وقال: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله يُنْفِلُكُمُوهَا»[1]، فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعض، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلاقي حربًا.

أما قافلة أبي سفيان، فكان فيها معظم أموال قريش، فيها ما بين ثلاثين إلى أربعين رجلاً، منهم مخرمة بن نوفل، وعمرو بن العاص، وفيها ألف بعير تحمل أموال قريش بأسرها، وكان أبو سفيان حذرًا في أثناء عودته، يرسل أمامه العيون ليستطلعوا أخبار المسلمين، فقد حدث قبل شهرين، أن سرية لعبد الله بن جحش قد تعرضت لعدد من تجار قريش، فقتلوا عمرو بن الحضرمي وأسروا اثنين وحازوا ما معهم من أموال ومتاع، ووصل إلى مسمع أبي سفيان خروج النبي ﷺ، فغير الطريق، وأرسل إلى مكة الصريخ ليستنفرهم ضد المسلمين، واجتمعت قريش وهبوا لنجدة قافلتهم.

وعلم النبي ﷺ خبر قريش، كما علم بتحول أبي سفيان إلى العدوة القصوى خلف المسلمين. ومن ثم نجا بقافلته، وهنا أصبح الصدام محتملاً مع الجيش لا مع القافلة، وكان المسلمون قد استعدوا وتجهزوا للقافلة فقط، لا لملاقاة جيش قريش، وهنا عمد النبي ﷺ لمشاورتهم في هذا الأمر المفاجىء، فليس معهم إلا فَرَسان وسبعون بعيرًا، وهذه العدة لا تقابل جيشًا متفوقًا بعدده وفرسانه.

قال المهاجرون على لسان المقداد بن عمرو: «يا رسول الله امض لما أمرك الله

---

(١) النفل: الغنيمة من غير قتال.





فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿**اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هنا قاعدون**﴾.

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لوسرت بنا إلى بَرْك الغماد ـ الحبشة ـ لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه» ثم قال عليه الصلاة والسلام: أشيروا على أيها الناس ـ وعنى بذلك الأنصار ـ فقال سعد ابن معاذ: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال سعد: قد آمنا بك وصدقناك وأعطينا عهودنا ومواثيقنا، فامض يا رسول الله لما أمرت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، وما نكره أن تلقى العدو بنا غداً، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تَقَرُّ به عينك، فسر بنا على بركة الله».

قال رسول الله ﷺ: «أبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

❊ ❊ ❊



(١)
غزوة بدر

تاريخ الوقعة: يوم الجمعة ١٧ رمضان السنة الثانية من الهجرة.

قائد حيش المسلمين: محمد رسول الله ﷺ.

عدد جيش المسلمين: ٣١٣ وقيل ٣١٤ مقاتلاً.

قائد جيش المشركين: «أبو جهل» عمرو بن هشام.

عدد جيش المشركين: ٩٥٠ مقاتلاً.

مكان المعركة: في بدر التي تبعد عن المدينة حوالى ١٠٠ كم إلى الجنوب الغربي.

سير المعركة:

نزل الرسول ﷺ بأدنى ماء من بدر، فقال له الْحبَاب بن المنذر: يا رسول الله: «أهذا منزل أنزلك الله إياه ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخره، أم هو الرأي والحرب والمكيدة.

قال رسول الله ﷺ: بل هو الرأي والحرب والمكيدة:

قال الحباب: يا رسول الله فإن هذا ليس لك بمنزل، انهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء سواه من القوم فننزله، ثم نغوّر ما وراءه من الْقُلُب[(١)]، ثم نبني عليه حوضًا ونملؤه ماء فنشرب ولا يشربون ثم نقاتلهم»، ففعل رسول الله ﷺ ذلك.

وبدأت الحرب حين خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي فقال: لأشربن من حوضهم ولأهدمنّه أو لأموتنّ دونه، فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فضربه

---

(١) القلب: مفردها: قليب وهو البئر قبل أن ترصف بالحجارة، وقيل البئر القديمة.



فأطن[١] قدمه بنصف ساقه، فوقع على الأرض.، ثم حبا إلى الحوض فاقتحم فيه، وتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض، ثم خرج عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة، وَدَعَوا للمبارزة، فخرج لهم ثلاثة من الأنصار، وانتسبوا لهم، قالوا: ليخرج إلينا أكفاؤنا من قومنا، فقال النبي ﷺ: قم يا حمزة قم يا عبيدة بن الحارث، ثم يا علي، ودنا بعضهم من بعض، فقَتَلَ حمزةُ شيبة وقتلَ عليٌّ الوليدَ، أما عبيدةُ بن الحارث وعتبة فأصاب كل منهما صاحبه، وكَرَّ حمزة وعلي على عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة جريحًا إلى عسكر المسلمين، ثم توفي رحمه الله.

وزحف جيش قريش ودنا من جيش المسلمين، فأمر الرسول ﷺ أصحابه ألا يحملوا على عدوهم حتى يأذن لهم بذلك، وقال: «إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل»، ونزل عليه الصلاة والسلام بالعريش ومعه أبو بكر الصديق يحرسه وأخذ يدعو الله ويتوسل إليه، ثم أغفى قليلاً وانتبه ثم قال: «يا أبا بكر أتاك نصر الله، هذا جبرائيل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع»[٢]، ثم خرج يحرض المسلمين على القتال وهو يقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر» وقال: «والذي نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة». واشتد القتال، فأخذ رسول الله ﷺ حفنة من تراب ورمى بها قريشًا وقال: «شاهت الوجوه» وقال لأصحابه: شدوا عليهم فكانت الهزيمة، فَقُتل من المشركين سبعون وأُسر سبعون، وكان عدد شهداء المسلمين أربعة عشر رجلاً. ونصر الله نبيه الكريم في أول معركة مسلحة بين التوحيد والكفر، بين الحق والباطل، وأعز الله جنده وهزم قريشًا وقُتل عددٌ من طواغيتها وعلى رأسهم قائدهم أبو جهل، وأمية بن خلف، ونزلت سورة الأنفال تبين حال المسلمين وقلتهم، ونصر الله تعالى لهذه القلة وتأييدهم بالملائكة.

فقال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ

(١) اطنّ ساقه: قطعها.

(٢) النقع: الغبار.





دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

* * *

(١) سورة الأنفال من الآية: ٧ ـ ١٠.

(٢)
غزوة بني قينقاع

حدثت في شوال من السنة الثانية للهجرة، بعد غزوة بدر

سببها: أن يهود بني قينقاع نقضوا العهد وبغوا على المسلمين، وكان الرسول ﷺ قد وادعهم حين قدم المدينة مهاجرًا، فلما بلغه حسدهم بعد انتصاره على قريش في بدر، جمعهم في سوقهم وقال لهم: «احذروا من الله مثلما نزل بقريش من النقمة وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل»، فقالوا: يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، فكانوا بهذا أول من نقض العهد من يهود، وبينما هم على مجاهرتهم وكفرهم وتحديهم للمسلمين؛ إذا بامرأة مسلمة من العرب جاءت بجلب لها فباعته في سوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ من أجل حلي لها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فقام رجل منهم وعمد إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها وهي لا تشعر به، فلما قامت انكشفت عورتها، فضحكوا منها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على اليهودي فقتله، وشدت يهود على المسلم فقتلوه، ونبذوا العهد إلى رسول الله ﷺ وتحصنوا في حصونهم، فغزاهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمس عشرة ليلة، فنزلوا على حكمه وشد وثاقهم لينظر في أمرهم وكانوا حلفاء الخزرج فقام عبد الله بن أُبّي بن سلول، فكلمه فيهم وقال: يا محمد: أحسن في مواليَّ، فلم يجبه، فأدخل يده في جيب رسول الله ﷺ فغضب رسول الله وقال: ويحك أرسلني، فقال: لا أرسلك حتى تحسن إلى مواليّ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة، إني

والله امرؤ أخشى الدوائر، فقال النبي ﷺ: هم لك، خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم، أما حليفهم عبادة بن الصامت فجاء إلى النبي ﷺ وقال: أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم، وبه وبعبد الله بن أُبيّ نزلت هذه الآيات:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ ﴾[1].

وغنم المسلمون ما كان لهم من مال ولم يكن لهم أرضون إنما كانوا صاغة، وساروا إلى أذرعات من أرض الشام، فلم يلبثوا بها قليلاً ثم هلكوا.

❊ ❊ ❊

(١) سورة المائدة الآية: ٥١.

(٣)
غزوة أحد

السنة: في ٧ شوال وقيل ١٥ منه سنة ٣ للهجرة.

قائد جيش المسلمين: محمد رسول الله ﷺ.

عدد جيش المسلمين: ٧٠٠ مقاتل

قائد جيش المشركين: أبو سفيان صخر بن حرب.

عدد جيش المشركين: ٣٠٠٠ مقاتل.

مكان المعركة: قرب جبل أحد بالمدينة المنورة.

أسباب المعركة: قال ابن جرير الطبري: وكان الذي أهاج غزوة أحد بين رسول الله ﷺ ومشركي قريش؛ وقعة بدر وقتل من قُتل ببدر من أشراف قريش ورؤسائهم.

لما رجع أبو سفيان سالمًا بعيره إلى مكة وعادت قريش من بدر بالهزيمة، مشى إلى أبي سفيان بعض من أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر وكلموه أن يستعينوا بهذه الأموال لحرب النبي ونيل الثأر منه، وخرجت قريش بجمعها وبمن أطاعها من كنانة وأهل تهامة وقد اتفقوا على حرب النبي ﷺ.

ثم ساروا حتى نزلوا قريبًا من أحد، وفي المدينة شاور الرسول ﷺ أصحابه في لقاء العدو، فأشارت طائفة بالخروج للقائهم، وأشارت أخرى بالتحصن في المدينة، وكان الرسول ﷺ يرى ذلك إلا أن الغالبية كانوا يرون الخروج وتحمسوا لذلك، فلبس النبي ﷺ لامته[1] بعد أن صلى بهم الجمعة وخرج بألف مقاتل، ثم مكر

(١) لامته: درعة.

زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول وعاد من منتصف الطريق بثلاثمائة مقاتل، وقال: عصاني وأطاعهم، وكان من رأيه أن يقاتلهم في المدينة، وبقي النبي ﷺ بسبعمائة مقاتل، ونزل الشِّعب من أحد في عدوة الوادى إلى الجبل، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وقال: لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال، وأمّر على الرماة عبد الله بن جبير، وعددهم خمسون رجلاً وقال: انضح عنا الخيل بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك، ولبس عليه الصلاة والسلام درعين في هذه المعركة.

بدء المعركة:

تقدم حامل لواء المشركين طلحة بن عثمان، فقال: يا معشر أصحاب محمد إنكم تزعمون أن الله يعجّلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة فهل منكم أحد يعجله الله بسيفي إلى الجنة، أو يعجلني بسيفه إلى النار، فقام إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبارزه فقطع رجله فسقط وانكشفت عورته فقال طلحة: أنشدك الله والرحم يا بن عم، فتركه علي، فكبر رسول الله ﷺ وقال لعلي: ما منعك أن تجهز عليه؟ قال: ناشدني الله والرحم فكففت عنه، ثم شد الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود على المشركين فهزماهم، وحمل جيش النبي ﷺ على جيش أبي سفيان فهزموه، وحمل خالد بن الوليد قائد خيل المشركين على المسلمين فرده الرماة، وماهي إلا جولة حتى فرت قريش ووصل المسلمون إلى قلب عسكرها، ورأى الرماة فرار جيش المشركين وانتهاب معسكرهم فقالوا: بادروا إلى الغنيمة، فقال بعضهم: لا نترك أمر رسول الله، وانطلق عامتهم فلحقوا بالعسكر، فلما رأى خالد قلة الرماة، انعطف بخيله عليهم وقتل الرماة ثم مال إلى المسلمين يقاتلهم، ولما رأى المشركون خيلهم تقاتل عادوا ودارت الدائرة على المسلمين.

حوادث في المعركة:

أعطى النبي ﷺ سيفه لأبي دجانة بحقه، وحقه أن يضرب به في العدو حتى ينحني.



قال الزبير رضي الله عنه: والله لقد رأيتني انظر إلى خدم[1] هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب، إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه يريدون النهب، وخلو ظهورنا للخيل، وصرخ صارخ ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى ما يدنو منه أحد من القوم، وهذا دليل على هزيمة المشركين في بدء المعركة.

ـ وفي هذه المعركة أجهز علي رضى الله عنه على حملة الألوية من المشركين، وأبصر رسول الله ﷺ جماعة من مشركي قريش فقال لعلي: احمل عليهم، فحمل عليهم وفرق جمعهم وقتل منهم عمرو بن عبد الله الجمحي، وأبصر آخرين فأمره أن يحمل عليهم، فحمل عليهم وقتل منهم شيبة بن مالك.

ـ وقتل حمزة عدداً من المشركين، وكان يترصد له وحشي ليجد منه غرة فيرميه بحربته، وبينما كان حمزة منهمكاً في قتال سباع بن عبد العزى وأجهز عليه إذا بوحشي يهز حربته ويقذفه بها، فتأتي في مكان قاتل، ويحاول حمزة أن يسير إلى وحشي ليقتله لكنه سقط شهيداً رضي الله عنه.

ـ وفيها أصيب رسول الله ﷺ فكسرت رباعيته[2] وشج رأسه وكُلم في وجنتيه.

ـ وفيها أقبل أُبى بن خلف على فرسه وهو يصرخ: أين محمد؟ لا نجوت إن نجا، فقال المسلمون: يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا؟ قال: دعوه فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدحرج منها عن فرسه مراراً.

وصعد المسلمون الجبل مع رسول الله وأراد المشركون صعود الجبل، فقال رسول الله ﷺ: لا ينبغي لهم أن يعلونا، فقام المسلمون ورموهم بالحجارة حتى أنزلوهم، وقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر.

وفيه مثل المشركون بعدد من المسلمين القتلى ومنهم حمزة رضي الله عنه، فجدعوا الأنوف وقطعوا الأذان وبقروا البطون. وكان حصيلة القتلى من المسلمين سبعين شهيداً وحصيلة القتلى من المشركين اثنين وعشرين قتيلاً.

---

(١) خدم: الخلاخيل.

(٢) رباعيته: السن التي تجاور الناب.



(٤)
جلاء بني النَّضِير

حدثت في السنة الرابعة من الهجرة

سببها: أن النبي ﷺ استعان ببني النضير في دفع دية لرجلين قتلهما عمرو بن أمية الضمري وهو من المسلمين، والرجلان لهما من رسول الله عهد وجوار، فطالب بديتهما عامر بن الطفيل، فقال بنو النضير: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: من رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيقتله بها فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمر بن جِحاش ابن كعب فقال: أنا لذلك، وكان النبي في نفر من أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلي قاعدًا إلى جانب جدار في بيوتهم، فأتاه الخبر من السماء يكشف مؤامرة اليهود، فقام وانطلق إلى المدينة وتبعه بعد ذلك أصحابه، ولما سألوه عن مغادرته المكان أخبرهم بما نوت عليه اليهود، ثم إنه أرسل لهم محمد بن مسلمة وقال له: «اذهب إلى يهود فقل لهم: اخرجوا من بلادي فلا تساكنوني وقد هممتم بما هممتم به من الغدر»، فلما أخبرهم محمد بن مسلمة بذلك قالوا: ماكنا نظن أن يجيئنا بهذا رجل من الأوس، فقال محمد بن مسلمة: تغيرت القلوب ومحا الإسلام العهود. فأرسل كبير المنافقين ابن سلول يقول لهم: لا تخرجوا فإن معي من العرب وممن انضوى إلي من قومي ألفين، فأرسلوا إلى النبي ﷺ رجلاً منهم وقال: إنا لانريم[1] فاصنع ما بدا لك! فكبر رسول الله ﷺ وكبرمعه المسلمون، وقال: «حارَبَتْ يهود»، يعني: أعلنت الحرب علينا، ونادى النبي ﷺ أصحابه إلى

(١) لانريم: لانبرح ـ لا نغادر.

السلاح، فحاصر بني النضير خمسة عشر يومًا، جهدوا فيه وقطع نخلهم وحرّقه، فأعطوه ما أراد منهم، وصالحهم على أن يحقن دماءهم، وأن يخرجوا دون سلاح وانطلقوا إلى أذرعات بالشام، وبعضهم نزل خيبر ليدبروا مؤامرة جديدة؛ منهم سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع، وحيي بن أخطب.

وفشل اليهود وخابوا وخسر حليفهم عبد الله بن أبي بن سلول، حيث لم يجرؤ على مساعدتهم كما وعدهم.

❊ ❊ ❊

(٥)
غزوة الخندق

حدثت في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة

قائد المسلمين: محمد رسول الله ﷺ.

عدد جيش المسلمين: ثلاثة آلاف مقاتل.

قائد جيش المشركين: أبو سفيان وعدد جيشه: عشرة آلاف مقاتل.

سببها: أن زعماء بني النضير من اليهود الذين لجأوا إلى خيبر بعد إجلائهم عن المدينة، وهم حيي بن أخطب، وسلام والربيع ابنا أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع وغيرهم، خرجوا إلى قريش في مكة، ودعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ. وقالوا لهم: إنا معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود! إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه. وكذبوا وهم يعلمون الحق من أجل مصالحهم الدنيوية، ونشطوا في تحزيب قريش ومن حالفها على حرب رسول الله ﷺ، وخرجوا حتى جاءوا غطفان وذكروا لهم استعداد قريش، فأجابوهم.

خرجت قريش للحرب وقائدها أبو سفيان، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن، وخرجت بني مرة وقائدها الحارث بن عوف، وخرج مسعود وقيل مسعر بن رخيلة بن نويرة فيمن تابعه من أشجع، وتحزب هؤلاء ضد المسلمين وأتوا بخيلهم ورجلهم لاستئصال المسلمين.

ولما علم الرسول ﷺ بأمرهم، ضرب الخندق على المدينة، وكان الذي أشار عليه بالخندق سلمان الفارسي، وكان أول مشهد شهده مع رسول الله ﷺ، وهو يومئذ حر، قال: يا رسول الله، إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا.

وعمل المسلمون الخندق، فكان طويلاً من «أُجُم الشيخين، حتى «المذاد» - والأجم بمعنى الأطم وهو الحصن - ووزع على كل عشرة من المسلمين أربعين ذراعًا ليحفروها من الخندق، وقال الأنصار: سلمان منا، وذلك ليضموه معهم في حفر الخندق لقوته وصبره على هذا العمل، وقال المهاجرون: بل سلمان منا فقال رسول الله ﷺ: سلمان منا أهل البيت. فكان سلمان عاشر ثلاثة من المهاجرين وستة من الأنصار اشتركوا في حفر أربعين ذراعًا وهم الذين خرجت لهم الصخرة المروة فلم يقدروا على كسرها، بل كسرت حديدهم فاستعانوا برسول الله ﷺ فكسرها بضربات ثلاث؛ خرج من كل ضربة برق، فرأى في الأولى قصور الحيرة والمدائن وفي الثانية قصور الشام وفي الثالثة قصور صنعاء، وبشر النبي ﷺ بفتح هذه البلدان.

حصار المدينة:

وصلت قريش وحلفاؤها إلى المدينة وحاصروها، وكانوا يتوقعون أن يقابلهم جيش المسلمين كما حصل في أحد، ولما أرادوا أن ينشبوا القتال، قام عدد من فرسان قريش منهم: عمرو بن ود وعكرمة بن أبي جهل، ونوفل بن عبد الله فخرجوا على خيلهم وقالوا: تهيئوا يا بني كنانة، فستعلمون اليوم من الفرسان ثم أقبلوا نحو الخندق حتى وقفوا عليه، فلما رأوه قالوا: والله هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، وراحوا يبحثون عن مكان ضيق ليقتحموا منه، واقتحمت بعض الخيل وجالت ما بين الخندق وسلع، فخرج إليهم علي بن أبى طالب في نفر من المسلمين وسد عليهم الثغرة التي اقتحموا منها، وتبارز مع عمرو بن ود فقتله وقتل ابنه حسل بن عمرو، وعادت الخيل منهزمة، كما حاول نوفل اجتياز الخندق فسقط فيه فرماه المسلمون بالحجارة، فقال: يا معشر العرب قتلة خير من هذه، فنزل إليه علي فأجهز عليه.



وأصيب من المسلمين سعد بن معاذ رضى الله عنه، رماه ابن العَرِقة في ساعده فُقطع أكحله وقال: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسول الله ﷺ، وكذبوه وأخرجوه، اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة.

بنو قريظة ينقضون العهد:

كان الذي وقع العهد مع النبي ﷺ، عن يهود بني قريظة كعب بن أسد فأتاه حُيي بن أخطب، فأغلق كعب الحصن دونه، فناداه حيي: يا كعب افتح لي. قال كعب: ويحك يا حيي، إنك امرؤ شؤم، إني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقًا، ومازال حيي به يحتال عليه حتى فتح له باب الحصن، ثم أقنعه بنكث العهد مع النبي ففعل وبرئ مما كان بينه وبين النبي من عهد، وتناهى الخبر إلى النبي ﷺ، فأرسل إلى يهود يتثبت من الأمر، كل من سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير، وأتوا يهود بني قريظة فكلموهم، فوجدوهم أخبث مما بلغهم عنهم، وقالوا: مَنْ رسول الله؟ لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد، وتكلم معهم سعد بن عبادة، فقلبوا له ظهر المجن، ثم عاد الوفد إلى النبي ﷺ وأخبروه، فاشتد البلاد على المسلمين من حصار قريش ومن معها، ومن غدر اليهود، ومن أهل النفاق، الذين أطلوا برؤوسهم وجهروا بما كانوا يخفون من عداوة، وبدأوا حرب المسلمين بالإشاعات والأقاويل، فشق ذلك على المسلمين، وامتد الحصار عشرين ليلة، ثم تطوع نُعَيم ابن مسعود حتى استطاع أن يخذّل الأعداء عن المسلمين، فأوقع بين قريش وبني قريظة حتى شك كل منهما بنوايا الآخر، واختلفت القلوب، وبينما هم في هذه الحالة أرسل الله تعالى ريحًا وجنوداً من عنده فعلت بهم الأهوال، حتى ما يقر لهم قدر ولا تشعل لهم نار، ودب الرعب في قلوبهم، فقال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل.

ثم قام إلى جمله، فجلس عليه، ثم ضربه فقام به على ثلاث وفك عقاله وانطلق، وتبعته غطفان وبقية الأحزاب وعادوا إلى بلادهم، ونصر الله المسلمين وأيدهم بجنود لم يروها.

استشهد من المسلمين ستة وقتل من المشركين أربعة.

* * *

(٦)
غزوة بني قريظة

كانت في أواخر ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة.

سببها: بعد أن خانت بنو قريظة ونقضت العهد مع النبي ﷺ وجب معاقبتها على فعلتها هذه، فلما كان الظهر، أتى جبريلُ رسول الله ﷺ وعليه عمامة من إستبرق فقال للنبي: أَوَقَدْ وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال النبي ﷺ: نعم. قال جبريل: ما وضعت الملائكة السلاح ومارجعتُ الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك يا محمد بالسير إلى بني قريظة، وأنا عامد إلى بني قريظة.

فأمر رسول الله ﷺ مناديًا فأذن بالناس: إن من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة، وأعطى الراية لعلي وقدمه ليلحق ببني قريظة، ودنا علي من حصونهم، ثم أتى رسول الله ﷺ إلى بني قريظة، واستمر الحصار شهرًا وقيل خمسًا وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب، ثم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس، فتكلم رجال من الأوس لكي يجعل أمرهم في أيديهم كما فعل الخزرج مع بني قينقاع؛ حيث وهبهم الرسول ﷺ لابن سلول، فقال رسول الله ﷺ: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجلاً منكم؟ قالوا: بلى، قال: فذاك إلى سعد بن معاذ وكان سعد يداوى في خيمة رُفَيْدة[١]، ثم حملوا سعدًا إلى رسول الله ﷺ، فقال سعد: إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم وأن تسبى ذراريهم[٢] وأن تقسم أموالهم، فقال رسول الله: لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله. ثم حفرلهم عدة خنادق وضربت أعناقهم فيها وكان عددهم ما بين ٦٠٠ - ٧٠٠ رجل وقيل أكثر من ذلك، وقتلت امرأة منهم أيضًا رمت رحى على خلاد بن سويد، فقتلها به.

(١) رفيدة الأنصارية الأسلمية كانت تداوي الجرحى وتخدم من به حاجة من المسلمين تطوعًا واحتسابًا.

(٢) الذراري: النساء والأولاد.



(٧)
غزوة خيبر

كانت في السنة السابعة من الهجرة، في أواخر المحرم.

قاد هذه الغزوة: رسول الله ﷺ، وكانت بعد أبرام صلح الحديبية مع قريش، فعاد رسول الله ﷺ من الحديبية وأقام بالمدينة ذا الحجة وبعض المحرم، ثم خرج إلى خيبر، وكان عدد جيشه / ١٤٠٠ / ألفًا وأربعمائة مقاتل، منهم مائتا فارس.

الخروج إلى خيبر: سار رسول الله ﷺ قاصدًا خيبر ونزل عليهم ليلاً، وفي الصباح خرج أهل خيبر من حصونهم إلى مزارعهم، فرأوا الجيش فعادوا فزعين وقالوا: محمد والخميس، أي الجيش، وأغلقوا باب الحصون عليهم، وكانت خيبر عبارة عن مدينة ذات حصون كثيرة محكمة، فيها الزاد والشراب، منها حصن ناعم والعَمُوس والصَّعب والوَطيح والسُّلالم.

وجرت مبارزات بين نفر من اليهود وعدد من الصحابة، اشتهر منها مبارزة علي ابن أبي طالب مع مَرْحِب اليهودي فقتله علي رضى الله عنه، وكذلك مبارزة الزبير مع ياسر أخي مرحب فقتله الزبير رضي الله عنه. وقاد حملة عمر بن الخطاب فرجع ولم يكن على يديه فتح، ثم أبو بكر أيضًا. ثم قال النبي ﷺ: لأعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسولُه، فأعطاها عليًا، وكان به رمد فتفل عليه الصلاة والسلام في عينيه فبرىء، ثم حمل على اليهود وقاتل حتى فتح الحصن وهو حصن السلالم لمرحب وأخيه. وأتم الله فتح خيبر لنبيه، وكان فتحًا مبينًا وفيه اصطفي رسول الله ﷺ صفية بنت حيي بن أخطب وتزوجها.

- وفيها، أن امرأة يهودية تدعى زينب وهي زوجة سلام بن مشْكم أهدت رسول الله شاة مصلية[1] وضعت فيها السم، فأخذ منها رسول الله ﷺ مضغة فلم

(١) مشوية.





يسغها وقال: إن هذه الشاة تخبرني أنها مسمومة، ولفظها، وأكل منها بشر بن البراء بن معرور فمات.

- وفيها وزع عليه الصلاة والسلام المغانم على المسلمين وأبقى أهل خيبر فيها يزرعونها ولهم النصف على أن يخرجهم المسلمون منها متى شاؤوا.

وفي خلافة عمر رضي الله عنه، أمر عمر بإخراجهم للحديث الشريف «لا يجتمع في جزيرة العرب دينان».

❋ ❋ ❋

(٨)
غزوة مؤتة

حدثت في جمادى الأولى سنة ثمان للهجرة.

قادتها من المسلمين حسب الترتيب: زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبي طالب ثم عبد الله بن رواحة، وكان تعيين هؤلاء بوصية من النبي ﷺ، ولما استشهد هؤلاء الثلاثة رضي الله عنهم، اتفق الجيش على خالد بن الوليد فحمل الراية، وقد سماه الرسول ﷺ في هذه الغزوة سيف الله فقال: حمل الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد.

قائد جيش الروم: هرقل وكان في ذلك الوقت في بيت المقدس.

عدد جيش المسلمين: ثلاثة آلاف مقاتل.

عدد جيش الروم: مائتا ألف مقاتل.

مكان الغزوة: في قرية مؤتة وهي قريبة من مدينة معان فى الأردن.

سير الغزوة: لما نزل المسلمون في البلقاء قرب معان ورأوا كثرة الجموع من الروم والعرب المتنصرة، قالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ ونخبره وننتظر أمره، لكن عبد الله بن رواحة شجعهم على المضى والقتال، فاشتبكوا مع الروم وقاتل المسلمون قتالاً شديداً، لكن قلة عددهم جعلت الروم تطمع بهم وتتكالب عليهم، فاستشهد القادة الثلاثة، ثم حمل الراية خالد بن الوليد ودافع عن المسلمين حتى تحاجز الفريقان ليلاً، ثم أنسحب تحت جنح الليل وأنقذ من بقي معه من المسلمين، وقد أُخبر النبي ﷺ بالوحي، فأخبر أهل المدينة بوقائع المعركة وإصابة القادة الثلاثة، ولما عاد الجيش إلى المدينة مفلولاً جعل الناس يحثون التراب في وجوههم وهم يقولون: يا فُرار فررتم في سبيل الله، ويقول النبي ﷺ: ليسوا بالفرار ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله.

واستشهد من المسلمين اثنا عشر صحابيًا هكذا ذكر ابن هشام. كما قتل.... عدد من جيش الروم لم يذكر وقد يزيد عن عدد قتلى المسلمين، إنما عدت هزيمة لانسحاب المسلمين وعدم إحرازهم نصرًا وبسبب مقتل القادة الثلاثة، وإن كنت أشك في عدد القتلى المذكور.

* * *



(٩)
فتح مكة

حدث هذا الفتح في العشرين من رمضان في السنة الثامنة من الهجرة.

عدد جيش المسلمين الفاتح: عشرة آلاف مقاتل.

يقودهم رسول الله ﷺ.

سببها: أن قريشًا نقضت ما كان بينها وبين النبي ﷺ في الحديبية، وقد كان في بنود الصلح: أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده.

وحدث أن اقتتلت بكر مع خزاعة واعتدت عليها، فساعدت قريش سراً بني بكر بالسلاح كما قاتل رجال من قريش ليلاً مع بني بكر، وعليه فقد نقضوا الصلح بهذا العمل مع رسول الله ﷺ حيث لايحق لهم أن يفعلوا ذلك، فانطلق بديل بن ورقاء مع نفر من خزاعه حتى قدموا على رسول الله ﷺ وأخبروه بما أصيبوا منهم، وبمساعدة قريش لبني بكر، ثم عادوا.

قدوم أبي سفيان للمدينة:

وقدم أبو سفيان إلى المدينة ليستطلع الخبر وليصحح خطأ قريش ويوثق صلح الحديبية ويزيد في مدته، فكلم رسول الله ﷺ فلم يرد عليه، وذهب إلى أبي بكر ليكلم له رسول الله فقال أبو بكر: ما أنا بفاعل، وقابله عمر بأشد مما قابله أبو بكر، وذهب إلى علي فكلمه أن يشفع له عند رسول الله، فقال له علي:



ويحك يا أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ثم وجد أبو سفيان أنه غير مرغوب فيه بالمدينة فخاف على نفسه وانطلق عائدًا إلى مكة خائبًا.

رسول الله ﷺ يأمر بالاستعداد:

وتجهز رسول الله ﷺ للغزو وأمر المسلمين بذلك دون أن يحدد لهم وجهة سيره، ثم أخبر الناس بعد ذلك بأنه ذاهب إلى مكة وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها» وأرسل حاطب بن أبي بلتعة كتابًا إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ، وأعطاه امرأة وجعل لها أجرًا على إيصاله، فوضعته في رأسها ثم فتلت عليه شعرها وخرجت به، وأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بما فعله حاطب، فبعث علي بن أبي طالب والزبير وقال لهما: «أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم ما أجمعنا عليه في أمرهم» فخرجا فأدركاها واستخرجا منها الكتاب، واستدعى رسول الله ﷺ حاطبًا فقال: «يا حاطب! ما حملك على هذا؟» فقال حاطب: يا رسول الله، إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت وما بدلت، ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم».

وخرج رسول الله ﷺ لعشر مضين من رمضان فصام وصام معه الناس حتى إذا كان بالكَديد[1] أفطر، ثم مضى حتى نزل في مَرِّ الظهران قريبًا من مكة.

أبو سفيان يستطلع حول مكة:

وخرج أبو سفيان في نفر يستطلع حول مكة، فقد كان به هاجس لا ينام ورأى نيرانًا كثيرة، فاقترب فلقيه العباس وأخبره بأن هذا جيش المسلمين، فخاف أبو سفيان، ثم إن العباس أجاره وأردفه وراءه على بغلة رسول الله ﷺ ودخل به إلى

(١) الكديد: موضع بين عَسْفان وأمَج.



النبي، ثم أسلم أبو سفيان في الصباح وشهد استعراض النبي ﷺ لجيشه، فقال أبو سفيان: لا طاقة لقريش به فأسرع إلى مكة وأخبرهم بذلك وقال لهم: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ووزع النبي ﷺ الجيش ليدخل مكة من أربعة مداخل وعلى رأس كل جيش قائد وهم: الزبير بن العوام، وأبو عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد، وسعد بن عبادة، وشهد جيش خالد قتالاً مع المشركين فقتل منهم ما بين اثني عشر رجلاً وثلاثة عشر، ثم انهزموا.

وفيها أمر رسول الله ﷺ بقتل أناس من المشركين وأهدر دمهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة، فقد آذوا رسول الله ﷺ.

ولما أطمأن الناس بمكة خرج رسول الله ﷺ وطاف بالبيت سبعًا على راحلته ثم حطم الأصنام ومسح صورًا داخل الكعبة وطهرها من رجس الشرك.

❊ ❊ ❊



(١٠)

غزوة حُنَين

حدثت في شوال من السنة الثامنة للهجرة.

قائد جيش المسلمين: محمد رسول الله ﷺ، وكان عدد جيش المسلمين اثني عشر ألف مقاتل.

قائد هوازن: مالك بن عوف النضري وعددهم عشرون ألفاً.

مكان المعركة: في وادي أوطاس في ديار هوازن.

سببها: لما علمت قبيلة هوازن أن رسول الله ﷺ فتح مكة، أجمعت على المسير إليه وحربه، ونزلوا بأوطاس مع حلفائهم من ثقيف وغيرهم، وأرسل النبي ﷺ عبد الله بن أبي حَدْرَد ليستطلع الخبر، فأخبره بأمر هوازن، فأجمع المسير إليهم بجيش الفتح وخرج معه ألفان من أهل مكة، ولما وصل المسلمون إلى الوادي ـ وكان الوقت فجراً ـ فاجأهم هجوم هوازن الذين كمنوا في هذا الوادي، فراعهم ذلك واندحروا وتفرقوا راجعين لا يلوون على شيء، وانحاز النبي ذات اليمين وقال: أين أنتم أيها الناس؟ هلموا إلي، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، وبقي مع النبي ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، ثم سمع الناس نداء رسول الله فعطفوا[1] ورجعوا وثبتوا معه ودارت رحى معركة عنيفة في هذا الوادي كان النصر فيها للمسلمين.

ـ وفرح بهزيمة المسلمين في بادئ الأمر ناس من قريش كانوا ما يزالون على

(١) هم: العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن الحارث وعلي بن أبي طالب وأسامة بن زيد وعمر بن الخطاب وأبو بكر الصديق وأيمن بن عبيد وحارثة بن النعمان وربيعه بن الحارث والفضل بن عباس.



الشرك، لكن الله خيب ظنهم فيما بعد حيث التف المسلمون حول رسول الله ﷺ وجالدوا الأعداء فقال النبي ﷺ: «الآن حمي الوطيس»، وماهي إلا ساعة حتى قتل من قتل من هوازن ودارت الدائرة عليهم وهرب مالك بن عوف ونفر من أصحابه إلى رؤوس الجبال ووقع في الأسر جمع غفير.

- وجمع السبي والغنائم في الجعرانة قرب مكة، ثم أرسلت هوازن وفدًا إلى رسول الله ﷺ وقد أسلموا فقالوا: يا رسول الله، إنا أصل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا مَنّ الله عليك، ثم رد عليهم السبي وكذلك فعل المسلمون، وأسلم مالك بن عوف ورد عليه رسول الله ﷺ أهله وماله ومائة من الإبل.

- استشهد من المسلمين أربعة، وقتل من هوازن اثنان وسبعون.

* * *



(١١)
غزوة تبوك

حدثت في رجب سنة تسع للهجرة.

سببها: أن ملك الروم هرقل والمتنصرة من العرب قد عزموا على قصد المدينة، فتجهز النبي ﷺ وأمر المسلمين بذلك فكان حشدًا كبيرًا للمسلمين رغم الجهد والفاقة وشدة الحر، وبرز في هذه الغزوة عدد من المسلمين الذين تسابقوا في التبرع والتصدق بأموالهم منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف والعباس بن عبد المطلب وطلحة بن عبيد الله، وتبرعت النساء بما يملكن من حلي وذهب، كما برز عد من المنافقين الذين عملوا في توهين المسلمين لصرفهم عن المشاركة في هذه الغزوة.

اجتمع جيش النبي ﷺ في ثنية الوداع وبلغ عددهم أكثر من ثلاثين ألفًا وهو أكبر جيش اجتمع للنبي ﷺ في غزواته رغم ما كان من الشدة والفاقة والحر، فكان شوكة في أعين المنافقين.

ووصل هذا الجيش إلى تبوك ولم يلق أحدًا من الروم أو من جيوش العرب المتنصرة، ولكن كان لذهابه خيرًا كثيرًا حيث وطد حكم المسلمين في تلك النواحي، فحضر صاحب أيلة إلى تبوك وصالح على دفع الجزية وكتب له النبي ﷺ كتابًا بذلك. كما وأرسل النبي ﷺ سرية بقيادة خالد بن الوليد إلى دومة الجندل فأسر صاحبها أكيدر، وأتى به إلى النبي ﷺ بتبوك فصالحه على الجزية وأطلقه. وأقام النبي بتبوك بضع عشرة ليلة، ولما لم يلق جموعًا من الأعداء عاد إلى المدينة وفي أثناء عودته خرّب مسجد الضرار للمنافقين، وبرزت في هذه الغزوة



أيضًا قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزوة وهم من غير المنافقين الذين تخلفوا بأعذار واهية، إنما كان تخلف هؤلاء الثلاثة دون عذر فقاطعهم المسلمون بأمر النبي ﷺ خمسين ليلة ثم أنزل الله توبته عليهم، ومن هؤلاء الثلاثة كعب بن مالك.

تكمن قيمة هذه الغزوة التي لم يحصل فيها قتال إلا في بعض الأماكن التى شنت فيها سرايا من هذا الجيش على عدد من المراكز في شمال الجزيرة العربية، في أنها كانت ذات حشد كبير، وانطلقت لحرب الروم والأخذ بثأر مؤتة ولو كان للروم حشد لكان لها شأن كبير ولكانت أول غزوة يخوضها النبي ﷺ ضد عدو خارجي، ولكن الله يفعل ما يريد.

❊ ❊ ❊



(١٢)
معركة عَقْرَباء

حدثت في سنة إحدى عشرة للهجرة.

كانت بين المسلمين بقيادة خالد بن الوليد ومسيلمة الكذاب الذي كان يقود أكثر من أربعين ألفًا.

سير المعركة:

أرسل أبو بكر الصديق جيشًا بقيادة عكرمة بن أبي جهل وأوصاه ألا يبدأ القتال وأن ينتظر توافد جيوش المسلمين، لكنه شن الغارة مستبقًا، فأصيب بهزيمة منكرة، فوجهه أبو بكر إلى بلاد عمان والمهرة وحضرموت وقال له: «لا أرينك ولا تراني، لاترجعن فتوهّن الناس».

ثم أرسل أبو بكر شرحبيل بن حسنة وأمره بالمقام حتى يصل خالد بن الوليد إليه، لكن شرحبيل عجل بلقاء العدو، فأصيب جنده أيضًا، ولما استكمل خالد ابن الوليد الاستعداد وتلقى المدد، تقدم نحو مسيلمة، فعسكر مسيلمة في عَقْرَباء وأرسل يستطلع خبر خالد، فوقع من أرسلهم في الأسر، فقتلهم خالد وأبقى على مَجّاعة بن مرارة أسيرًا عنده لشرفه في بني حنيفة، ثم التقى الجمعان في عقرباء، وكان حامل لواء الأنصار ثابت بن قيس، وحامل لواء المهاجرين سالم مولى أبي حذيفة، وبقية العرب على راياتهم، واشتد القتال ولم يلق المسلمون حربًا مثلها في الشدة والعنف، وانهزم المسلمون وانكشف فسطاط خالد بن الوليد، ووصل بنو حنيفة إلى مُجّاعة ففكوا أسره وقطعوا الفسطاط، ثم إن المسلمين تداعوا للصمود



وتقدم ثابت بن قيس حامل لواء الأنصار فقاتل حتى قتل، ثم حمل خالد بالناس فردوا بني حنيفة، فعاد بنو حنيفة يشتدون في القتال، وأصبحت المعركة تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء، وسقط من المسلمين كثير من الشهداء، أمثال زيد بن الخطاب وسالم وأبو حذيفة وغيرهم، ثم قال خالد: امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حي ولنعلم من أين نُؤتى؟ لذلك قال كل حي: اليوم يُستحى من الفرار، كما أبعد الأعراب عن القتال، وعاد المسلمون في كرتهم ودارت الدائرة على مسيلمة، وركب المسلمون جند مسيلمة فكانت هزيمتهم، فقال بنو حنيفة لمسيلمة: أين ما كنت تعدنا؟ فقال لهم: قاتلوا عن أحسابكم ـ يعني أنه كان كاذبًا في نبوءته ـ ثم دخل جند مسيلمة الحديقة وأغلقوا بابها، ثم نادى البراء بن معرور في الناس وقال: ألقوني إليهم، فحملوه حتى رَقِي الأسوار، ونزل فقاتل حتى فتح الباب، ودخل المسلمون وكثر القتل في جند مسيلمة، ثم قُتل مسيلمة وولى قومه منهزمين، وقبض خالد على مجاعة مرة ثانية وقال له: أين مسيلمة؟ فتفقدوه بين القتلى، فدلهم عليه فإذا رُوَيْجل ـ تصغير رجل ـ أصيفر أخينس تصغير أخنس وهو المتأخر بين الناس ـ فقال خالد: هذا الذي فعل بكم ما فعل!

قتل من المهاجرين والأنصار (٦٦٠) رجلاً.

قتل من جيش مسيلمة الكذاب نحو من عشرين ألفًا.





(١٣)
موقعة ذات السلاسل

وقعت في المحرم من سنة (١٢) هجرية قرب كاظمة

وكانت بين المسلمين والفرس. وكان قائد جيش المسلمين خالد بن الوليد، وعدد جيشه (١٨٠٠٠) مقاتل وقائد جيش الفرس هرمز، وفي هذه المعركة اقترن الفرس بالسلاسل حتى لايفروا نزل خالد بن الوليد على غير ماء، فأرسل الله سحابة أمطرت وأصبح في الأرض غدران فشرب منها المسلمون وقويت روحهم أمام عدوهم.

ثم دعا خالد بن الوليد هرمز للمبارزة، فأقبل هرمز بعد أن أوصى جيشه بالغدر بخالد في أثناء المبارزة، لكن خالداً قتل هرمز قبل أن ينفذ جيش الفرس خطة الغدر، ثم أمر خالد بالهجوم على جيش الفرس فأزاحوهم عن مواقعهم، ثم كانت الهزيمة، كان في جيش خالد القعقاع بن عمرو وهو الذي أمده به أبو بكر، ولما قيل لأبى بكر: أتمد خالداً برجل واحد؟ قال أبو بكر: لايهزم جيش فيه القعقاع بن عمرو.

وفي هذه المعركة أرسل خالد إلى هرمز قبل القتال كتابًا جاء فيه: «أما بعد فأسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة، وأقرر بالجزية وإلا فلا تلومَنَّ إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحب الحياة».

ولما قتل خالد هرمزَ أخذ سلبه فكانت قلنسوته تساوي مائة ألف.

* * *

(١٤)
موقعة المَذار

حدثت في سنة (١٢) هجرية بين المسلمين والفرس.

قائد المسلمين: خالد بن الوليد.

قائد الفرس: قارن بن قريانس، صاحب الشرف الرفيع.

جاء قارن مددًا لهرمز ولما وصل واجه فلول المنهزمين في معركة ذات السلاسل، فانضموا إلى عسكره ونزل في المذار، وبلغ خالد خبرهم فتقدم نحوهم ومعه من القادة؛ المثنى بن حارثة وأخوه المعنّى ومعقل بن الأعشى وعدي بن حاتم والقعقاع بن عمرو.

وخرج قارن يدعو للمبارزة، فبرز إليه خالد ومعقل، فسبق إليه معقل فقتله، ثم التحم الجيشان وكان النصر للمسلمين، وقتل من فارس مقتلة عظيمة وركب الباقي السفن للنجاة، ومنع الماءُ المسلمين من اللحاق بهم، وكان جملة من قتل من الفرس قريبًا من ثلاثين ألفًا عدا الذين غرقوا في الماء، وفي هذه المعركة سُبِيَ ذراري المقاتلين من الفرس ومن ساندهم، وكان في السبي والد الحسن البصري العالم الشهير فيما بعد. وضربت الجزية على الفلاحين لقاء إقامتهم وزراعة الأرض.



(١٥)
موقعة أُلّيس

وكانت بعد موقعة المذار، حدثت في صفر سنة (١٢) هجرية.

سببها: غضب نصارى العرب وهم من بكر بن وائل على ما أصاب العرب من قومهم الذين أعانوا الفرس، فنكبوا في معركة الولَجَة، فاجتمعوا في أليس وعليهم عبد الأسود العجلي، ثم انضم إليهم جابان بجيش كبير من الفرس.

أما جيش المسلمين فقائدهم خالد بن الوليد، فقد علم بتجمع نصارى العرب من عِجْل ومن ساندهم من بقية النواحي، فنهد إليهم في أليس، ولم يعلم بقدوم جابان، وكانوا على وشك تناول طعام الغداء، فحط خالد الأثقال أمامهم ونظم جيشه وتوجه إليهم، وطلب مبارزة عبد الأسود العجلي وابن أبجر ومالك بن قيس، فبرز إليه مالك فقتله خالد، وقامت الحرب بين الفريقين، قال لهم جابان: سموا الطعام، فإن انتصرنا عليهم نصنع غيره، وإن انتصروا علينا أكلوا منه وهلكوا، لكنهم لم يفعلوا لثقتهم بالنصر لقلة عدد المسلمين وبالتالي عودتهم سريعًا إلى طعامهم، وصبر الفريقان، وكان المشركون يتوقعون مددًا من الفرس، إلا أن المسلمين عاجلوهم بالنصر، فقتلوا وأسروا كثيرًا منهم، وكان خالد قد نذر لئن أظفره الله بهم ليجرين من دمائهم نهرًا، وذلك لجحودهم وقتالهم بني جلدتهم ومساندتهم للفرس.

فقدم الأسرى وضربت أعناقهم فلم تجر الدماء نهرًا، فقال القعقاع بن عمرو: أرسل عليهما الماء كي تجرى وتبر يمينك، ففعل وسميت هذه الوقعة أيضًا: نهر الدم، وكان مجمل قتلى الفرس ومن والاهم سبعين ألفًا، وعاد المسلمون إلى الطعام فكان غداء طيبًا بعد النصر.

(١٦)
وقعة الفِراض
١٥ من ذي القعدة سنة ١٢ هـ

قائد جيش المسلمين: خالد بن الوليد رضي الله عنه.

والفراض على حدود الشام مع العراق ومع الجزيرة، لذا فقد شارك في الحرب ضد المسلمين كل من الروم والفرس ونصارى العرب مثل تغلب وإياد والنمر، واجتمع لهم جيش يزيد كثيراً عن مائة ألف وكان الحائل بين الفريقين أحد روافد الفرات، فقال الروم لخالد: إما أن تعبر إلينا أو تدعنا نعبر إليكم فقال: اعبروا إلينا، فقالوا أفسح لنا، فقال: ما أنا بفاعل، اعبروا أسفل منا، فعبروا وتصاف الفريقان ودارت معركة شديدة صبر فيها المسلمون ثم أنزل الله نصره عليهم وفرت الجموع المتحالفة، فقال خالد: اتبعوهم ولا يفلتوا منكم ، وكان عدد قتلى الأعداء في المعركة وفي الطلب مائة ألف، ومكث خالد مع جيشه عشرة أيام لجمع الغنائم ثم انصرفوا قاصدين الحيرة في ٢٥ من ذي القعدة، وأرسل خمس الغنائم لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وأخبره بما كان في هذه الموقعة، وقيل: إن خالد بن الوليد حج في هذه السنة ولم يعلم به سوى قلة من قادته المقربين فكان في ساقة الجيش، فخرج إلى مكة من أقصر الطرق، فأدى حجه ثم عاد مع وصول جيشه إلى الحيرة.



(١٧)
معركة اليرموك

حدثت في السنة الثالثة عشرة من الهجرة قرب نهر اليرموك، في شهر جمادى الآخرة، بين المسلمين والروم.

عدد جيش المسلمين: ما بين ٤٠ ـ ٤٦ ألفا وقيل: أقل من ذلك.

عدد جيش الروم: (٢٤٠) ألفاً، وقيل: أكثر من ذلك.

وكان قائد جيش المسلمين؛ خالد بن الوليد ومعه كبار قادة الفتح مثل: أبو عبيدة ابن الجراح وعمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة والزبير بن العوام والقعقاع بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل.

وقائد الروم: تذارق يساعده الفيقار وياهان.

وفي هذه المعركة، نظم خالد بن الوليد جيش المسلمين على شكل كراديس كل كردوس بألف مقاتل، يقوده واحد من أبطال المسلمين وقال: إن عدوكم طغى وكثر وليس من التعبية تعبية أكثر في رأى العين من الكراديس، ثم أمر عكرمة والقعقاع أن ينشبوا القتال، وأُنشب القتال، والتحم الناس وتطارد الفرسان، وخرج جَرْجَة من الروم وهو مقدم عساكرهم، وسأل خالد أسئلة عن الدين الإسلامي، فأخبره خالد عما سأل، فأسلم وانقلب مع المسلمين، وقاتل معهم وأصيب آخر النهار.

وحمل الروم على المسلمين فأزالوهم، ثم تنادى المسلمون للثبات فثبوا للروم وعادت الكرة للمسلمين عليهم وارتفع القتال واشتد حتى مالت الشمس للمغيب وتضعضع الروم فانتهزها خالد فرصة فاخترق بمن معه وهو في القلب جيش الروم

حتى فصل خيلهم عن رجالتهم (المشاة) فإذا بخيل الروم تصبح خارج المعركة ووجدوا أن الطريق مفتوح أمامهم للهرب، فانطلقوا في الصحراء لا يثبتون وأفرج لهم المسلمون الطريق مما سهل هروبهم، وأقبل المسلمون على المشاة وكانوا قد اقترنوا بالسلاسل حتى لا يفروا، فسهل هذه على المسلمين قتلهم ورمى أكثرهم نفسه في الخندق خوفًا وفرقًا، فكان الواحد منهم يسقط ويسحب معه من اقترن به، وتهافت الجميع في الواقوصة وهو الاسم الذى أطلقه المسلمون على الخندق، فيقتل أعلاهم أسفلهم، فكان عدد من قتل في هذا المكان مائة وعشرين ألفًا، ولما رأى الفيقار هذه الهزيمة المنكرة وما نزل بجنده، ألقى على نفسه البرنس حتى لايرى الهزيمة، وفعل مثله عدد من أشراف الروم، فقتلوا وهم على هذه الحالة، وكتب الله النصر للمسلمين.

وقد شارك في هذه المعركة ألف من صحابة رسول الله ﷺ منهم مائة شهدوا بدرًا، كما قاتلت النساء في جولة من هذه المعركة.

استشهد في اليرموك ثلاثة آلاف من المسلمين، منهم عكرمة بن أبى جهل وابنه عمرو، وهشام بن العاص، كما أصيبت عين أبي سفيان، وجرح ضرار بن الأزور بجراحات بليغة.

وتعد هذه المعركة من المعارك الإسلامية الفاصلة فلم يلق المسلمون بعدها مثل هذا الجمع من الروم وبدأ بعدها حصار المدن في بلاد الشام وفتحها الواحدة تلو الأخرى.



(١٨)
معركة أجنادين

على الرغم من شهرة هذه المعركة، إلا أنه اختلف في زمانها، فقد ذكرها بعض المؤرخين قبل اليرموك، وذكرها بعضهم بعد اليرموك، كما اختُلف في الحديث عنها حتى ليخيل للمتتبع أنها كانت جزءًا من معركة اليرموك، لورود أسماء قادتها من الفريقين وهم قادة معركة اليرموك نفسها، ولهذا ذكرها ابن الأثير مرتين، مرة مع حوادث سنة ١٣ هـ ومرة أخرى مع حوادث سنة ١٥ هـ وفي رأيي هي الأصح، لاقتران ذلك بمعارك فلسطين كفتح بيسان ثم القدس وقيسارية وغزة.

تقع أجنادين بين الرملة وبيت جبرين بفلسطين.

قائد جيش المسلمين؛ عمرو بن العاص يساعده شرحبيل بن حسنة.

قائد جيش الروم؛ الأرطبون.

وكان الأرطبون أدهى الروم وأبعدها غورًا، فوضع في الرملة جندًا كثيفًا ووضع في القدس جندًا أيضًا كما وضع جندًا في بيسان ولما بلغ عمر بن الخطاب عن دهاء الأرطبون قال: «قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عم تنفرج» وعمل عمرو على مشاغلة الجنود خارج أجنادين بعدد من قادته وتفرغ للأرطبون يخطط لدحره، وبقي عدة شهور لم يظفر منه بشيء أو خبر لصنع مكيدة له، ثم سار إليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول ففطن إلى حيلته الأرطبون وقال: لاشك أن هذا هو الأمير أو من يأخذ الأمير برأيه، فأمر الحراس إذا مر بهم في عودته أن يقتلوه، وانتبه عمرو إلى ما يضمر له الأرطبون من المكر وقال في نفسه: أحسنت يا عمرو الدخول فأحسن الخروج، ثم قال للأرطبون: قد سمعت مني وسمعت منك، وقد



وقع قولك مني موقعًا وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر إلى هذا الوالي لنكاتفه، فأرجع فآتيك بهم الآن، فإن رأوا الذي عرضت علي الآن فقد رآه الأمير وأهل العسكر وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم، فقال الأرطبون: نعم ثم أرسل إلى الحراس بعدم التعرض له طمعًا منه أن ينال من العشرة بدل الواحد، وخرج عمرو سالمًا ثم علم الأرطبون أنها كانت خدعة من عمرو فقال: هذا أدهى الخلق، ثم إن عمرو بن العاص عرف مكان الضعف عند الأرطبون فشن عليه الحرب، وكانت موقعة شديدة بأجنادين لا يفوقها شدة إلا اليرموك، حتى كثرت القتلى، ثم انهزم الأرطبون وقصد بيت المقدس وتحصن فيه، وكان عدد قتلى الروم قريبًا من ثمانين ألفًا.

* * *



(١٩)
معركة الجسر

يقال لها القَرْقَس والمَرْوَحة.

حدثت في شعبان سنة ١٣ هـ.

قائد جيش المسلمين: أبو عبيد الثقفي في (٩٠٠٠) مقاتل.

قائد جيش الفرس: بَهْمَن جَاذويه ومعه الجالينوس.

وبَهْمن لم يقابل خالد بن الوليد في معاركه التي خاضها في العراق، وكان قد تأخر عن معركة أُلّيس حيث قدم أمامه جابان كما مر.

أما أبو عبيد فقد أمّره عمر بن الخطاب على جيش العراق، لأنه كان أول من هب إلى الجهاد، وكان معه المثنى بن حارثة، وسليط بن قيس، وسعد بن عبيد.

فبعد معارك خالد بن الوليد المظفرة في العراق، حدث تطور في فارس فاستلم رستم القيادة العامة لجيوش الفرس، وكلفه كسرى بقتال المسلمين وأصبح صاحب الكلمة العليا في فارس، فكتب إلى الناس في المدن التي فتحها المسلمون، أن ثوروا بالمسلمين، وأرسل دعاته ليباشروا ذلك، وكان المثنى بن حارثة بقلة من المسلمين ينتظر المدد، لذلك تراجع بمن معه حتى لا يؤتى من خلفه وأقام قرب القادسية حتى قدم إليه أبو عبيد الثقفي، فالتقوا مع الفرس في معركة النمارق فهزموهم، ثم في معركة كسكر والسقاطيّة فهزموهم أيضًا وغنموا كثيرًا من السلاح والطعام وأعطوا منه للفلاحين وكان محرمًا عليهم لأنه خاص بالملوك، كما بعثوا منه إلى المدينة المنورة، وفرق أبو عبيد عدة جيوش لتطارد العدو وتصيب

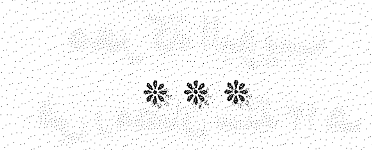
تجمعاتهم، فنجحوا في ذلك، وهزم الجالينوس في باقسياثا، وهكذا فشلت خطة رستم في إحداث ثورة على المسلمين، وعاد الجالينوس إلى رستم مع فلول المنهزمين، وهنا عقد رستم راية لبهمن جاذويه وهي رآية كسرى طولها اثنا عشر ذراعًا وعرضها ثمانية أذرع كما زوده بالفيلة وعليها الرماة.

وتقابل الجيشان وبينهما نهر الفرات، فأرسلوا إلى أبي عبيد إما أن تعبروا إلينا ونخلي بيننا وبينكم، وإما أن نعبر إليكم وتخلون بيننا وبينكم، فقال أبو عبيد: بل نعبر إليهم - وذلك لفرط شجاعته - لكن القادة الذين مع أبي عبيد نصحوه بعدم العبور، فأصر على رأيه وقال: لا يكونون أجرأ على الموت منا، وهكذا عبر المسلمون إلى مكان ضيق المطرد والمذهب، وهو لايصلح لقتال جيشين كثيفين، ومع ذلك صمدا المسلمون في المعركة وأثخنوا الفرس جراحًا ولم يبق إلا هزيمة الفرس، فإذا بالفيلة تضايق المسلمين وتفتك بهم، وتُرهِب خيلهم، فحمل أبو عبيد على الفيل الكبير بعد أن أعطى أوامره بقطع الركائب لكي يسقط الرماة الذين على ظهر الفيل، لأنهم آذوا المسلمين بالنشاب والحراب، ولما اقترب أبو عبيد من الفيل الكبير أهوى الفيل على أبي عبيد بخرطومه فضربه بالسيف لكن الفيل اتقى السيف بيده، ثم أمسك أبو عبيد بخرطوم الفيل إلا أن الفيل سارع وضرب أبا عبيد بيده فسقط أرضًا ثم داسه فقتله، وصرع أبو عبيد في وقت كان نصر المسلمين قاب قوسين أو أدنى، فاضطرب الجند وبادروا للهرب، فقطع مرثد الثقفي الجسر كي لايفر المسلمون، فأوقع المسلمين في ضيق وكرب، والمثنى يصيح به أن يقيمه ليعبر المسلمون، فقد بدأ المسلمون يلقون بأنفسهم في النهر، فعمد المثنى مع عدد من شجعان المسلمين على شد الجسر وربط الحبال ونادى المثنى بالمسلمين ليعبروا بتأن وسلامة ووقف يصد عنهم هجمات الفرس حتى كان آخر الجند عبورًا، وانتقلوا للضفة الثانية يجمعون أنفسهم بعد أن فقدوا أربعة آلاف جندي ما بين قتيل وغريق، وفر ألفان في المفاوز وكانت معركة قاسية على المسلمين حتى شبهها بعضهم بمعركة مؤتة، وقتل عند الجسر سليط بن قيس الذي نصح أبا عبيد من قبل بعدم العبور إلى الفرس، وقد كان سليط مع المثنى بن حارثة عند الجسر يحمي



الناس لعبوره بسلام، وهو من القادة الشجعان رحمه الله. وبقي مع المثنى ثلاثة آلاف، وقد جرح المثنى جراحات بليغة في هذه المعركة.

أما الفرس فقد اكتفوا بهذا النصر على المسلمين لأول مرة منذ بدء المعارك معهم، وقد حدث في المدائن ما يشغلهم أيضًا حيث اضطرب نظام الحكم هناك مما أثر على الجيش فلم يتبع المسلمين مستغلاً هذا النصر.



* * *

(٢٠)

معركة البويب

في رمضان سنة ١٣ هـ

قائد جيش المسلمين: المثنى بن حارثة، يساعده جرير بن عبد الله في بجيلة وعاصم بن عمرو والمعنى بن حارثة وعصمة بن عبد الله الضبي.

قائد جيش الفرس: مهران الهمذاني، يساعده مرزبان الحيرة ومردانشاه.

ولما تقابل الجيشان على نهر الفرات، بعث مهران إلى المثنى، إما أن تعبروا وإما أن نعبر إليكم، فقال المثنى: بل اعبروا، فعبروا وقام المثنى خطيبًا وقال: أفطروا كي تتقووا على عدوكم، وكان عمر قد أرسل بالمدد إلى المثنى فكلما وفد على عمر قوم من أجل الجهاد قال: عليكم بالعراق.

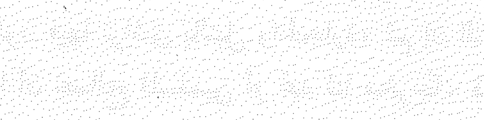
وتصافّ الجيشان فكان للفرس ثلاث فرق مع كل فرقة فيل، ووقف المثنى على الرايات يحثهم ويأمرهم بالثبات والتحم الجيشان، فكان المثنى كلما رأى خللاً في إحدى فرقه أرسل إليها لتتماسك ونبهها وحثها.

ولما طال القتال بين الطرفين، وكل فريق مستميت ثابت يريد إحراز النصر، حمل المثنى بمن معه على قلب مهران وقصد مهران بالذات واشتد القتال وحمي الوطيس، ثم وثب غلام من تغلب على مهران فقتله واستوى على فرسه، وتزلزل الفرس، وأفنى المسلمون قلب الفرس، فقويت ميمنة المسلمين على ميسرتهم، وميسرة المسلمين على ميمنتهم، فاضطربوا وكثر القتل فيهم وكان النصر المبين على الفرس، فقد قدر عد قتلاهم بمائة ألف أو تزيد، وشفي الله قلوب المؤمنين وكانت

معركة البويب تعويضًا عن معركة الجسر، واستشهد من المسلمين مسعود أخو المثنى، ومن نتائج هذه المعركة؛ سيطرة المسلمين على سواد العراق، حيث لم يعد للفرس مقاومة تذكر، ووصل المسلمون إلى صفين.

على هامش المعركة: وجلس المثنى يتحدث مع أفراد الجيش بعد انتهاء المعركة ليسمع منهم آراءهم وتقويمهم للمعركة وفتح لهم قلبه ليحدثه مَنْ شاء منهم عن وقائع المعركة والمشاهدات الشخصية، فقال قُرط بن جَمّاح: قتلت رجلاً فوجدت منه رائحة المسك فقلت: هذا مهران ورجوت أن يكون، فإذا هو صاحب الخيل شهربراز فوالله ما رأيته إذ لم يكن مهران شيئًا، أي رأى أنه لم يقتل رجلاً مهمًا، وقال المثنى: «لقد قاتلتُ العرب والعجم في الجاهلية والإسلام، والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد علي من ألف من العرب، ولمائة اليوم من العرب أشد علي من ألف من العجم، إن الله أذهب بأسهم ووهّن كيدهم، فلا يروعنكم عدد ترونه ولاسواد ولا قسي فج، ولا نبال طوال، فإنهم إن أُعجلوا عنها أو فقدوها كانوا كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت».

❋ ❋ ❋





(٢١)
فتح دمشق
سنة ١٣هـ

قادة الجيوش الإسلامية، أبو عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وشر حبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان مدة الحصار: سبعون يوماً، وقيل ستة شهور والأول أثبت وكان حاكم دمشق: نسطاس بن نسطورس وفي المدينة صهر الملك هرقل توما.

وقبل الفتح، جرت عدة معارك على الأبواب، كانت عنيفة ورهيبة، وكان على الأبواب القادة التالية أسماؤهم:

١ ـ يزيد بن أبي سفيان، على الباب الصغير.

٢ ـ شرحبيل بن حسنة، على باب توما.

٣ ـ عمرو بن العاص، على باب الفراديس.

٤ ـ قيس بن هبيرة، على باب الفرج.

٥ ـ أبو عبيدة بن الجراح، على باب الجابية.

٦ ـ خالد بن الوليد، على الباب الشرقي، كما جعل ضرار بن الأزور على رأس ألفين من الفرسان ليطوف بهم على الأبواب وينجد من يحتاج إلى النجدة.

وكانت المعارك حول دمشق تقوم بين المهاجمين والمدافعين من خلف الأسوار يكون فيها تراشق بالنبل والحجارة، ثم إن الناس من الروم فزعوا إلى توما وقالوا: إما أن نصالح المسلمين أو تجد لنا مخرجًا، فوعدهم قتال المسلمين، ثم جهز جيوشًا على كل الأبواب لكي يباغتوا المسلمين في وقت واحد حدده لهم، وانطلقوا ليلاً

بغارة شعواء فثبت لهم المسلمون ودارت معركة حامية الوطيس على جميع الأبواب وكانت أشد ما تكون على باب توما، ثم كثر القتل في الروم فارتّدوا إلى الأبواب تاركين آلاف القتلى، وبعد حصار دام سبعين يومًا عبر خالد بن الوليد خندق الماء فوق القرب ثم رمى المسلمون الكلاليب فعلق اثنان منها، فرقي المسلمون السور ثم مدوا بقية الحبال وصعد جمع من المسلمين فوق الأسوار، ونزلوا ففتحوا الباب الشرقي في خفة وبراعة، ثم تدفقت الجيوش وقاتلت من وقف في طريقها، ولما علم الروم وهم على باب الجابية بما حصل عند الباب الشرقي سارعوا إلى أبي عبيدة وطلبوا تسليم البلدة بالأمان، فوافق ولم يدر ما فعل خالد، ثم دخلها صلحًا والتقى جيش خالد مع وفد أبي عبيدة الذي تسلم المدينة في وسط المدينة عند كنيسة مريم، ثم إن أبا عبيدة أمضى الفتح صلحًا وفق شروط المسلمين على المدينة كافة.

❋ ❋ ❋



(٢٢)
موقعة فِحْل
سنة ١٣ هـ من ذي القعدة

قائد المسلمين: أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، ومعه عدد من كبار قادة المسلمين، خالد بن الوليد، عمرو بن العاص، شرحبيل بن حسنة..

قائد الروم: سقلار بن مخراق - نسطوس -

بعد فتح دمشق، استخلف أبو عبيدة عليها يزيد بن أبي سفيان وتقدم بجيشه نحو فحل وهي في بيسان بفلسطين، فكان على المقدمة خالد بن الوليد وعلى الخيل ضرار بن الأزور، وعلى الميمنة أبو عبيدة، والميسرة عمرو بن العاص، وعلى المشاة شرحبيل بن حسنة وعياض بن غنم. نزل شرحبيل بالجيش في فحل وبينه وبين الروم أرض موحلة، وكان شرحبيل لايبيت إلا على تعبئة حتى لا يؤخذ غرة، ثم هجم الروم بقيادة سقلار وظنوا أنهم سيفاجئون المسلمين، لكن المسلمين كانوا على يقظة وحذر، واستمر القتال ليلاً إلى النهار ثم الليل، وفي الليل ارتبك الروم وحاروا ما يفعلون وقد نفد صبرهم، كما أصيب قائدهم سقلار، والمسلمون صابرون لهم ففر الروم باتجاه الأرض الموحلة فسقطوا فيها، فأخذهم المسلمون بالرماح والنشاب حتى أفنوهم وكان قتلاهم قريبًا من ثمانين ألفًا.





(٢٣)
معركة القادسية

حدثت في المحرم سنة ١٤ هـ قرب القادسية في العراق.

قائد جيش المسلمين: سعد بن أبي وقاص ومعه أكثر من ثلاثين ألف مقاتل.

قائد جيش الفرس: رستم جاذويه في مائه وعشرين ألفًا ويصل عددهم مع خدمهم وتابعيهم إلى مائتي ألف، ومعهم ثلاثة وثلاثون فيلاً منهم فيل سابور الأبيض.

ما قبل المعركة:

بعد هزيمة الفرس في معركة البويب، استاء أهل فارس من قادتهم وقالوا: أنتم الذين أوصلتمونا إلى هذه النتيجة، واختلافكم جرَّ علينا هذا البلاء، وتكلموا مع رستم ثم بحثوا عن ملك كسروي يدير البلاد فتوصلوا إلى يزدجرد بن شهريار بن كسرى، ونصبوه ملكًا وهو ابن إحدى وعشرين سنة واجتمعوا عليه، وتبارى القادة والرؤساء في طاعته واطمأنت فارس، وعين يزدجرد القادة ووزعهم على الثغور، ونقض أهل السواد[1] صلحهم مع المسلمين خوفًا من الفرس ورهبة، وكتب المثنى إلى عمر يخبره بذلك فكتب عمر إلى المثنى: «أما بعد؛ فاخرجوا من ظهر العجم وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم ولا تدعوا أحدًا من أهل النجدات ولا فارسًا إلا اجتلبتموه، احملوا العرب على الجد إذا جد العجم فلتلقوا جدهم بجدكم» فانسحب المثنى ونزل في ذي قار ونزل الناس على شكل مسالح يغيث بعضهم بعضًا متناثرين إلى قريب من البصرة ويجتمعون إذا دعت الحاجة ونادى النفير، كان ذلك في ذي القعدة سنة ١٣ هـ.

---

(١) سكان ما بين النهرين.

وفي سنة ١٤ هـ من أول المحرم عسكر عمر بن الخطاب خارج المدينة يريد الغزو فاجتمع إليه الناس، لكن عبد الرحمن بن عوف أشار عليه بعدم الخروج وأن يولي على الجيش سعد بن أبي وقاص، وكان سعد على صدقات هوازن فبعث إليه عمر وولاه قيادة الجيش في العراق، وسيره في أربعة آلاف وأرسل إلى المثنى لكي ينضم إليه، والحقيقة أن سعد بن أبي وقاص قد تولى قيادة جيش المسلمين في ظروف اشتد فيها أهل فارس، ووحدوا جهودهم ضد المسلمين، وحركوا أهل السواد ضدهم فكأن الفتح السابق لم يكن، ومع ذلك فقد استفاد سعد ممن سبقوه من القادة، خالد بن الوليد وأبي عبيد والمثنى، لأن انتصاراتهم السابقة أضعفت الفرس وأخافتهم رغم تظاهرهم بالجلد، كما أنها أنقصت كثيراً من جيشهم ففقدوا ما لا يقل عن مائة وخمسين ألف مقاتل إن لم يكن أكثر وهذا الحشد الفارسى الكبير كان بمثابة الصحوة قبل الموت في معركة فاصلة، ولم يعد في مقدور الفرس إن هزموا أن يحشدوا مثل هذا الجيش لا كماً ولا نوعًا فالمعركة مصيرية والآمال متعلقة بنتيجتها.

واجتمع لسعد في القادسية أكثر من ثلاثين ألف مقاتل[١]، وترك المثنى لسعد وصية من قائد مجرب خبر المعارك ضد الفرس لكي يستفيد من تجاربه أيضًا لأن المثنى قد توفي قبل وصول سعد على إثر جراحاته البليغة. أما عمر بن الخطاب فقد قدر حجم المعركة وعرف أنها بحاجة إلى المزيد من الحشد فأمر بالسماح لأهل الردة الذين تابوا بالمشاركة في هذه المعركة وقد منعوا من قبل من المشاركة في الفتوحات، كما قال قولته المشهورة: والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب، فلم يدع رئيسًا ولا ذا رأى أو شرف ولا خطيبًا ولا شاعراً إلا رمى بهم في المعركة، فكان كل من يريد الجهاد يوجهه للعراق، لذا كان المدد يأتي إلى سعد أرسالاً أرسالاً.

ولما نزل سعد بالقادسية أتاه كتاب عمر ـ وكان عمر لايهدأ بالكتب ليبقى على صلة بالمعركة وأخبار الجيش ـ فقال صف لي موقعك صفة كأني انظر إليها واجعلني من أمركم على الجلية، فوصف له سعد منزله بالقادسية كما وصف له

(١) هذا أصح من الروايات التى تقدر عددهم ما بين ٩٠٠٠ ـ ١٠٠٠٠ مقاتل والفرس ما بين ٤٠ ـ ٥٠ الفا.

جيش الفرس وقائدهم، وذكر له أهل السواد ونقضهم ما كان مع المسلمين. فرد عليه عمر بكتاب يثبته فيه فقال: «فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء الله». وهكذا كان هذا القرار الخطير الذي فيه مضمونًا بالنصر عليهم في هذه المعركة والثقة بذلك رغم فارق الجيشين ورغم ما يبدو من هول المعركة المنتظرة، وفيه أيضًا مضمون القضاء على دولة الفرس نهائيًا وألا يمهلهم للاستعداد ثانية.

أعداد المقاتلين من الطرفين

قدر عدد جيش المسلمين بأكثر من ثلاثين ألفًا وجيش الفرس بأكثر من مائة وعشرين ألفًا ماعدا متبوعيهم، ومن ذكر أرقامًا أقل من هذا فهو لم يتصور ضخامة المعركة وأهميتها، فهي معركة فاصلة ولو كانت في حدود سبعة آلاف أو عشرة للمسلمين وخمسة أضعافهم للفرس لما كانت تزيد عن أية معركة من المعارك التي سبقتها كالبويب والجسر وأليس والمذار، فقد وضع فيها كلا الطرفين كل ما أمكن من حشد وطاقة، فعمر بن الخطاب كان يريد أن يأتي على رأسها، وكذلك ملك الفرس أراد أن يقودها بنفسه لولا أن كفاه رستم هذا وتعهد له بالنصر، فقد استعان رستم بكل قائد مجرب، فاستدعى مرزبان الباب والبندوان والجالينوس... وهذا الاهتمام الكبير من الطرفين يجعلنا نرجح الأرقام الكبيرة لعدد الجيوش والتي اخترناها في المقدمة.

وقدم رستم أمامه الجالينوس، فكان يأمره فينتقل مرحلة ثم يسير خلفه وهكذا كان يتقدم بحذر، فكانت مدة خروجه إلى أن لقي سعدًا أربعة أشهر وهدفه من ذلك أن يمل المسلمون من اللقاء ثم ينصرفوا..

وأرسل إلى سعد أن يرسل إليه من يفاوضه فأرسل إليه على عدة مرات مفاوضين، منهم رِبْعي بن عامر والمغيرة بن شعبة وغيرهما، وكان كلما ذهب إليه من يفاوضه لايسمعه إلا قولاً واحدًا، الإسلام أو الجزية أو القتال. وكان رستم يحاول أن يغريهم بالمال ليرجعوا، وأن تحسن فارس علاقاتها مع العرب وهم يحلمون بماضيهم المتغطرس على العرب، فكان الجواب من المسلمين دومًا:

الإسلام أو الجزية أو القتال. ولما كان لابد من الحرب أرسل إلى سعد يقول: إما أن تعبر إلينا أو نعبر إليكم، فقال سعد: بل اعبروا إلينا، ثم طلبوا منه التنحي عن القنطرة ليعبروا، فلم يوافق وقال: هذا شيء غلبناكم عليه فلن نرده عليكم، ثم تكلفوا معبراً آخر غير القناطر فعبروا ونزلوا ضفة العتيق (أحد فروع الفرات) واستعمل يزدجرد رجالاً يخبرونه عن تحركات رستم ومنازله ومصافه وقتاله مع المسلمين، حيث يقول الأول فيسمع الثاني فالثالث.. إلى باب إيوان يزدجرد وهذا ليقف على أخبارهم أولاً بأول.

اليوم الأول، يوم أرماث الاثنين في المحرم ١٤ هـ

وأقام سعد في القصر وأمامه الجيش على مصافه عليه قادته، وكان سعد قد أصيب بالدمل فلايستطيع القعود ولا الركوب، وهو على صدره تحته وسادة يلقي بالرقاع فيها أمره ونهيه، يبلغ ذلك إلى خالد بن عُرفطة وهو يبلغها إلى الأجناد. وبدأت المعركة باختطاف عدد من جنود الفرس وقتلهم ثم كبر سعد وتلاحم الجيشان وتقدم نحو بجيلة (قبيلة) ستة عشر فيلاً فنفرت خيلهم وكادوا أن يهلكوا بمن معهم، فأرسل سعد إلى بني أسد أن ساعدوا بجيلة فخرج طليحة وقوم من بنى أسد في كتائبهم إلى الفيلة فردوها وإن على كل فيل عشرين رجلاً، ولما رأى ذو الحاجب وقوف أسد كثف الهجوم عليهم وقصدهم من دون العرب، فكانوا في محنة، وكبر سعد الرابعة فزحف بقية جند المسلمين، ونادى سعد عاصم بن عمرو وقال له: اكفيني شر الفيلة، فأمرعاصم رجاله أن يستدبروا الفيلة ويقطعوا السيور التى تحمل التوابيت ثم ليرموا مَنْ فوقها، ففعلوا وحسرت الفيلة وقتل من عليها من الجند، ثم تحاجز الناس في الليل وأصيب من قبيلة أسد خمسمائة وكانوا هم الدريئة للمسلمين في هذا اليوم، حيث تلقوا الصدمة الأولى عن غيرهم واحتووا هجوم الفرس.

اليوم الثاني، يوم أغواث

ووصل مدد من الشام وهم الذين كانوا مع خالد، فعادوا بناء على أوامر عمر ابن الخطاب وفيهم القعقاع بن عمرو وهاشم بن عتبة وكانوا في ستة آلاف مقاتل،

وكان وصول القعقاع في صبيحة يوم أغواث، وخرج القعقاع من فوره ونادى للمبارزة وخرج له ذو الحاجب بهمن جاذويه فأخرج له البيرزان والبندوان فخرج مع القعقاع الحارث بن ظبيان فبارزاهما وقتلاهما، ونشط المسلمون واقتتل الجيشان حتى المساء وكانت الغلبة للمسلمين في هذا اليوم، ولم يقاتل الفرس بالفيلة هذا اليوم لتكسر توابيتها في اليوم الأول، حيث لم يتمكنوا من إصلاحها. لذلك خرجت من المعركة وقاتل المسلمون بمعنويات كبيرة في غيابها.

اليوم الثالث، يوم عِماس

وفي هذا اليوم جهز الفرس الفيلة وصدموا بها المسلمين وتطوع القعقاع بن عمرو وعاصم فشدوا مع جماعتهم على الفيل الأبيض ـ وهو أكبرها ويسمى فيل سابور ـ وفقؤوا عينيه بالرماح ثم قطعوا خرطومه، وشد آخرون من بني أسد على الفيل الأجرب وفعلوا فيه مثل فعل القعقاع وعاصم فارتد الفيلان على جيش الفرس وتبعهما بقية الفيلة فعبروا العقيق هربًا بمن على ظهورها من الجنود، واستمر القتال شديدًا طيلة هذا اليوم ثم تواصل حتى الليل فسميت هذا الليلة ليلة الهرير وكانت شديدة على الطرفين وانقطعت الأصوات إلا من صوت السلاح وفقد الاتصال مع القيادة، فلاسعد يعلم ماجرى للمسلمين ولا رستم يعلم ماجرى للفرس، وعند الصباح انتهى الناس وكانت الغلبة للمسلمين، وسميت بهذا الاسم لأن الجميع فقدوا النطق وكان كلامهم الهرير.

اليوم الرابع يوم القادسية

وهذا اليوم كان صبيحة ليلة الهرير حيث استمر القتال في الصباح وقال القعقاع: اصبروا فإن صبرتم ساعة كان النصر لكم بإذن الله، وخالط المسلمون الفرس وجالدوهم وما ارتفع قائم الظهرة حتى انفرج القلب وتوغل فيه المسلمون، وهبت عاصفة فقلعت خيمة رستم عن سريره وحملتها للعقيق / النهر / وانتهى القعقاع ومن معه إلى السرير وتنحى رستم فاختبأ بين بغال محملة بالأموال ووصل إليه هلال بن علقمة فقطع حملاً فسقط فوق رستم، وكسر فقاراً من ظهره، فهرب

وألقى بنفسه في الماء فتبعه هلال فجذبه من رجله وأخرجه للشط وقتله ثم صعد سريره وقال: قتلت رستم ورب الكعبة، وكبر المسلمون وهرب الفرس يريدون العبور، وسقط المقترنون بالحديد في النهر والمسلمون يطعنون بالرماح ونادى سعد جنوده لاتباعهم والإجهاز عليهم حسب تعليمات عمر، وألا يفلت منهم أحد وطاردوهم حتى آخر اليوم في البوادي والقرى.

استشهد من المسلمين زهاء ثمانية آلاف وخمسمائة مقاتل، وقتل من جنود الفرس ما يزيد على خمسين ألفًا وشرد جيشهم فلم يصل منهم إلى المدائن إلا القليل.

❊ ❊ ❊



(٢٤)
معركة جلولاء
في صفر سنة ١٦هـ

قائد جيش المسلمين: هاشم بن عتبة ومعه القعقاع بن عمرو

عدد جيش المسلمين: اثنا عشر ألفًا.

قائد الفرس: مهران الرازي.

سير المعركة:

اجتمع الفرس بعد فتح المدائن في جلولاء، وهو مكان مفترق الطرق إلى أذربيجان والباب والجبال وفارس، لذلك تعد جلولاء على مفترق هذه الطرق في مكان مهم (استراتيجي) وتعاهد الفرس على الصمود للمسلمين واحتفروا خندقًا واستعدوا للمسلمين، وكانوا على صلة بيزدجرد الذي كان يمدهم بالرجال والمال ورمى الفرس بالحسك في طريق المسلمين، ليتأذى منه الخيل والمشاة (شوك من حديد) ولقد اشتبك المسلمون معهم في ثمانين اشتباكًا كانت كلها لصالح المسلمين وفي كل اشتباك يتقدم المسلمون ويضيقون الحصار على الفرس، ثم خرج الفرس على المسلمين من طريق سري لم يكن فيه حسك واقتتلوا قتالاً شديدًا إلى الليل حتى شبهه بعض المسلمين بليلة الهرير في القادسية، ثم انتهى القعقاع إلى باب الخندق وأخذ به ونادى في المسلمين فهبوا جميعًا حتى أخذوا الباب وتفرق العجم في الطرق التي وضعوا فيها الحسك فوقعوا في شر أعمالهم وهلكت خيلهم منها فعادوا مشاة فأخذتهم سيوف المسلمين ولم ينجو منهم إلا القليل وكان جملة قتلاهم مائة ألف قد تناثروا في الساحات والتلال، لذلك سميت هذه المعركة



«جلولاء الوقيعة»، ولما علم يزدجرد بالنتيجة وكان مقيمًا في حلوان فر نحو الجبال، كما فر مهران قائدهم ببعض جنده فاتبعه القعقاع حتى خانقين فقتله، ثم وصل القعقاع إلى قصر شيرين والتقى مع دهقان حلوان فهزمه القعقاع وقتله في المعركة ودخل المسلمون حلوان.

* * *



(٢٥)
معركة نهاوند (فتح الفتوح)
سنة ٢١ هـ

قائد المسلمين: النعمان بن مقرن[1] ومعه ثلاثون ألفًا.

قائدها من الفرس: ذو الحاجب وقيل الفيرزان ومعه مائة وخمسون ألفًا سميت فتح الفتوح لأن الفرس بعد هزيمتهم في هذه المعركة لم تقم لهم قائمة ولم يستطيعوا أن يعبئوا مثل هذا العدد فيما بعد، بل تشتتوا في البلاد ومالوا إلى الدسائس والمؤامرات على المسلمين.

سبب هذه المعركة: أن ملك الفرس قد جمع جموعًا عظيمة بنهاوند وجعل عليهم ذا الحاجب قائدًا، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب، أرسل إلى النعمان يوليه قيادة الجيش المتجه إلى نهاوند، وكان معه عدد من الصحابة مثل حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عمر وجرير بن عبد الله البجلي، والمغيرة بن شعبة وغيرهم من أبطال العرب ولما وصل الجيش إلى نهاوند إذا بحسك الحديد يدخل في حافر فرس فتوقف الجيش ثم اكتشفوا أن العجم قد بثوا الحسك في الطريق، فاستشار النعمان أصحابه فيما يفعله، فقالوا نريهم أننا منهزمون ثم نكر عليهم، ففعلوا ذلك فخرج الفرس في إثرهم بعد أن كنسوا الحسك، فانعطف عليهم المسلمون بعد أن عبأ النعمان كتائبه وصلى بالمسلمين الذين معه الجمعة، ودارت معركة حامية بين الطرفين، وكان الفرس قد شدوا جنودهم بالسلاسل حتى لا يفروا، لكن الدائرة دارت عليهم وبدأ تفوق المسلمين، وفي خضم هذه المعركة أصيب النعمان بسهم

(١) النعمان بن مقرن المزنى صحابى جليل شارك في فتوح العراق وهو الذي بشر عمر بن الخطاب بالنصر في القادسية، فتح أصبهان واستشهد بنهاوند.



قاتل، فسقط شهيدًا، وكان بجانبه أخوه سويد، فلبس ثيابه وقاتل وهو يكتم خبر استشهاد أخيه حتى لايصاب الجند بالجزع والتردد فتنقلب نتيجة المعركة، ولما فتح الله على المسلمين نهاوند دفع سويد الراية إلى حذيفة بن اليمان حيث أوصى له النعمان بالقيادة إن استشهد.

وفي هذه المعركة أصيب الفرس إصابة لم يروا مثلها، وفقدوا أكثر من مائة ألف سوى من قتلوا في الطلب، وسقط منهم في «اللهب» - وهي حفرة كبيرة - المسلسلون، وفر الفيرزان، فاتبعه نعيم بن مقرن أخو النعمان فأدركه قرب ثنية همذان، وفي الثنية بغال كثيرة محملة بالعسل قد سدت الطريق بكثرتها فحبسته عن الهرب، فأدركه نعيم وقتله على الثنية (مرتفع)، فقال المسلمون: «إن لله جنودًا من العسل» حيث حبس بسببهم وغنم المسلمون الأحمال واستسلمت نهاوند ومدن همذان وخراسان وفارس.

وهناك رواية أخرى حول استشهاد النعمان جاء فيها: وقاتلهم المسلمون يومي الأربعاء والخميس والحرب سجال، ثم إنهم دخروا يوم الجمعة فاختبأ الفرس خلف خنادقهم وطال الحصار والفرس لايخرجون، ثم استشار النعمان أصحابه في حيلة لكي يخرجوهم من حصونهم وخنادقهم، فكان رأى طليحة بن خويلد بأن تتحرش الخيل بهم ثم تفر أمامهم ففعلوا ذلك وأطمعوهم بالهزيمة فخرج الفرس وكان القتال على أشده وكثر القتلى من الفرس حتى زلقت الأرض بالناس والدواب من كثرة الدماء، وقيل إن فرس النعمان زلقت به فسقط وصرع رحمه الله.





(٣٦)

معركة سبيطلة(١)

سنة ٢٧ هـ

قائد المسلمين: عبد الله بن سعد بن أبي السرح وعدد جيشه (٢٠) ألف مقاتل.

قائد الروم: جرجير ومعه (١٢٠) ألف مقاتل وقيل (٢٠٠) ألف، في هذه المعركة التقى جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح مع جيش الروم ومن ساعده من البربر بقيادة جرجير، وقد دعا عبد الله جرجير إلى الإسلام أو دفع الجزية، فأبى بصلف وتكبر ثم نشب القتال بين الفريقين وانقطع خبر عبد الله بن سعد عن عثمان بن عفان، فأرسل إليه مددًا بقيادة عبد الله بن الزبير ولما وصل عبد الله بن الزبير وجد عجبًا، فإذا بعبد الله بن سعد لايحضر القتال وإنما يرسل جيشه ويبقى متخفيًا، فقال له ابن الزبير ولم هذا؟ قال: إن جرجير أرسل مناديًا يقول: من يقتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف درهم وأزوجه ابنتي، فخفت الغدر على نفسي، فقال ابن الزبير: ألا رددت عليه بإخراج مناد من عندك يقول: من يقتل جرجير فله مائة ألف درهم وأزوجه ابنة جرجير، فاستحسنها ثم فعل ذلك فكان جرجير أشد خوفًا وحذرًا.

ورأى عبد الله بن الزبير أن الجيشين يقتتلان من الصباح حتى الظهر ثم ينسحبان للاستراحة، فقال ابن الزبير: ما هذا بقتال، ثم صنع حيلة فحارب بنصف الجيش أول النهار حتى الزوال، ولما تحاجز الجيشان هجم بغتة بالنصف الآخر فكانت الهزيمة وقتل جرجير وفتحت مدينة سبيطلة وغنم المسلمون أموالاً كثيرة وعاد عبد الله بن الزبير إلى عثمان بن عفان يبشره بالنصر وفتح تونس.

---

(١) مدينة تقع إلى الجنوب الغربي من القيروان بتونس على مسيرة يومين منها.



وفي رواية عن عبد الله بن الزبير يذكر كيف قتل جرير فيقول: فنظرت إلى الملك جرجير من وراء الصفوف وهو راكب على برذون، وجاريتان تظلانه بريش الطواويس، فذهبت إلى عبد الله بن سعد فسألته أن يبعث معي مَنْ يحمي ظهري وأقصد الملك، فجهز معي جماعة من الشجعان، ثم ذهبت حتى خرقت الصفوف إليه وهم يظنون أني في رسالة إلى الملك فلما اقتربت منه أحس مني الشر ففر على برذونه فلحقته فطعنته برمحى، وذففت عليه بسيفي وأخذت رأسه فنصبته على رأس الرمح وكبرت، فلما رأى البربر ذلك خافوا وفروا فرار القطا واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون.

* * *



(٢٧)
معركة ذات الصواري ـ البحرية

كانت سنة ٣١ هـ، وكان قائد أسطول المسلمين: عبد الله بن سعد بن أبي السرح في مائتي سفينة.

وقائد أسطول الروم: قسطنطين بن هرقل ملك الروم، وكان عدد سفنهم ما بين ٦٠٠ ـ ٨٠٠ سفينة.

سببها: أن قسطنطين بن هرقل أراد أن ينتقم لفتح إفريقيا وهزيمة الروم فيها فأراد أن يوقع بالمسلمين في حرب بحرية، لظنه أن المسلمين لايجيدون ركوب البحر والقتال فيه، فحشد كل ما استطاعه من سفن وأتى يريد ديار المسلمين، ثم تقارب الأسطولان، وانتظروا سكون الريح، وبات المسلمون على سفنهم حتى الصباح وهم في صلاة ودعاء وتسبيح، ثم عمد المسلمون إلى ربط السفن بعضها ببعض مع سفن الفرنجة، ودارت معركة بالسيوف والخناجر قتل فيها عدد كبير من الجانبين ثم أنزل الله نصره على المسلمين، وقتلوا من الروم ما لا يحصى ولم ينج منهم إلا الشريد ومنهم قسطنطين الذي وصل إلى صقلية جريحًا فلامه النصارى على مخاطرته وأدخلوه حمامًا وقتلوه، وأقام المسلمون أيامًا في ذات الصوارى لإصلاح الحال، وقد صُبغ الساحل باللون الأحمر، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركامًا على الساحل.



(٢٨)
معركة ممش (في تونس)
سنة ٦٩هـ

كانت هذه المعركة بين المسلمين من جهة والروم والبربر من جهة أخرى.

قائد جيش المسلمين: زهير بن قيس البلوي.

قائد المشركين: كسيلة(١) بن كمرم البربري.

بعد استشهاد عقبة بن نافع في كمين من قبل البربر والروم وارتداد كسيلة بعد إسلامه، سارع عبد الملك بن مروان إلى تعيين زهير بن قيس واليًا على إفريقيا وزوده بجيش كبير لقمع البربر وتخليص المسلمين في تونس واستعادة القيروان التي سقطت بأيدي البربر.

تقدم زهير بجيشه في تونس فلما علم كسيلة به انسحب من القيروان إلى ممش على تخوم الجبال لكي يجد مفرًا إذا كانت الدائرة عليه، وكان معه جيش كثيف من الروم والبربر، ونشبت المعركة في ممش وصبر الفريقان حتى أيس الجميع من الحياة وصمد المسلمون أكثر النهار وصبروا، فدارت الدائرة على كسيلة فقتل وقتل معه خلق كثير من زعماء البربر والروم، ولم ينج من جيش كسيلة إلا القليل.
وترجع أهمية هذه المعركة إلى الآتي:

- لقد تهدد وجود المسلمين في تونس وكاد أن يزول فجاءت هذه المعركة لتثبيته والقضاء على قوة الخصم.

---

(١) كان قد أسلم مع أبي المهاجر والي إفريقية وحسن إسلامه وفي زمن عقبة بن نافع ارتد لأمر حدث بينه وبين عقبة راجع ابن الأثير الكامل ص ١٠٧، ٤٤.

- أثبتت هذه المعركة وقوف المسلمين صفًا واحدًا أمام الخطر الخارجي، فقد طمع هؤلاء الأعداء بالمسلمين لانشغالهم بالفتن الداخلية (القتال بين الأمويين وابن الزبير) وانتهزوها فرصة للقضاء عليهم فجاءت هذه المعركة لتبدد أحلامهم.

- التركيز على هذه المنطقة وإرسال أفضل القادة إليها لتثبيت دعائم الإسلام فيها والقضاء على أحلام الروم بالعودة إليها.

* * *



(٣٩)
معركة قرطاجنة
سنة ٧٢ هـ

قائد جيش المسلمين: حسان بن النعمان الغساني

قائد الروم: ملك قرطاجنة

استغل الروم وغيرهم من أعداء المسلمين انشغال المسلمين بالفتن الداخلية فأغاروا على أطراف الدولة الإسلامية، خصوصًا في إفريقيا حيث تعرضت الإسكندرية لغارات الروم البحرية، وكذلك برقة في ليبيا، وتونس حتى سقطت القيروان بيد كسيلة البربرى حليف الروم... ولما فرغ عبد الملك من ابن الزبير وخلت له البلاد من منافس أعطى اهتمامه لحماية البلاد وأعد الجيوش لذلك فقد عين حسان بن النعمان قائدًا لجيش كثيف وجهه إلى إفريقيا ليؤدب الروم ومن والاهم، ولينتقم منهم من مقتل زهير بن قيس عندما صد الروم في برقة بأربعين فارسًا وهم ألوف مؤلفة فقد أبى عليه دينه وشهامته أن ينسحب أو يتراجع لكي يجمع جيشه، فقد سمع استغاثة الأسرى المسلمين وهم بأيدي الروم يسحبونهم إلى مراكبهم فانطلق إليهم مع هذه الكوكبة وقاتل حتى استشهد.

قدم جيش حسان بن النعمان إلى إفريقيا ونزل في القيروان، ثم توجه نحو مدن الساحل التونسي وقصد قرطاجنة وكانت في منأى عن هجمات المسلمين فحاصرها حسان وفتحها وقاتل جيشها قتالاً عنيفًا بقيادة حاكمها حتى شتت شملهم وهرب قسم كبير منهم إلى صقلية بحرًا، فهدم حسان المدينة حتى لايعود الروم إليها ثانية ثم فتح بقية المدن الساحلية مثل بنزرت وصطفورة بعد أن لقي مقاومة عنيفة فقضى عليها وتم السيطرة على هذا الجزء من إفريقيا كاملاً.



(٣٠)
معركة الأوراس
سنة ٧٩ هـ من شعبان

قائد المعركة من المسلمين: حسان بن النعمان.

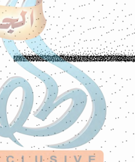
قائد المشركين: الكاهنة من البربر.

بعد أن اجتمعت الكلمة على عبد الملك بن مروان، اهتم بشؤون إفريقيا وكانت المنطقة قد خلت من القيادة الإسلامية بعد مقتل زهير بن قيس البلوي سنة ٦٩ على يد الروم، فقد انفردت الكاهنة في حكم إفريقيا الداخلية وكان مركزها في جبال الأوراس، فجهز عبد الملك بن مروان جيشًا كثيفًا وزوده بالسلاح والمال وعين عليه قائدًا هو حسان بن النعمان، فدخل حسان إلى تونس فالقيروان ثم غزا الساحل وافتتح قرطاجنة ومدن الساحل ثم تفرغ لحرب الكاهنة، والتقى بجيشها على نهر «نيني» ودارت معركة حامية كان النصر فيها للكاهنة، وفر جيش حسان ووقع في الأسر عدد كبير من المسلمين، منهم خالد بن يزيد القيسي، فاتخذته الكاهنة ولدًا لها، ثم فارق حسان تونس ومكث في برقة، وأخبر عبد الملك بما حصل، فأمر بألا يبرح مكانه حتى يأتيه أمره، وظل حسان يدير ذلك الإقليم مدة خمس سنوات، فأتاه أمر عبد الملك بوجوب قتال الكاهنة، وأرسل له الجنود والأموال اللازمة ثم إن حسان بن النعمان راسل خالد بن يزيد القيسي ليعلمه بأسرار الكاهنة، وكانت خلال هذه المدة قد ساءت سيرتها في الناس وعسفت وظلمت حتى استغاث من أعمالها الصديق قبل العدو، فاستغل حسان سمعتها



المتدنية وتقدم من ليبيا باتجاه قابس ثم احتل قفصة وقسطيلية ونفزاوة وتقدم إلى معقلها في الأوراس فالتقى مع جندها في معركة حامية الوطيس، ظن الناس أنه الفناء ثم نصر الله المسلمين وانهزم البربر وقتلوا قتلاً ذريعًا، وانهزمت الكاهنة ثم أدركها الطلب فقتلت وانتهى شرها، وبعدها أصبح حسان سيد الموقف، فقصده البربر مستسلمين وبدؤوا يدخلون في دين الله أفواجًا، وعاد حسان في رمضان إلى القيروان والأمن مستتب.

* * *





(٣١)
معركة نهر السند
سنة ٨٩ هـ

قائد جيش المسلمين محمد بن القاسم[١] ومعه ستة آلاف مقاتل

قائد جيش الهنود: داهر ملك السند ومعه أكثر من مائة ألف مقاتل مع عدد كبير من الفيلة المدربة.

بدأ محمد بن القاسم الثقفي فتوحاته بثغر الديبل (كراتشي اليوم) فحاصره ونصب عليه منجنيقًا يقال له «العروس» يعمل عليه خمسمائة رجل ففتحها وحطم صنمها الكبير «بُدّ» وكان فتحها عنوة ثم سار شمالاً محاذيًا لنهر السند حتى التقى بجيش داهر ملك السند، وكان داهر على الطرف الثاني من النهر قد أعد جسرًا وكمن بجيشه، فعبر إليه محمد والتقى معه في معركة حامية، وكان الهنود يقاتلون وهم على ظهور الفيلة وصبر المسلمون لهم ووثب على داهر رجل من المسلمين فقتله، وعند المساء حلت الهزيمة بجيش الهنود وركبهم المسلمون يقتلون كيف شاؤوا من الأعداء. وبعد هذه المعركة بدأ محمد بن القاسم يفتح البلاد بمعارك أقل شأنًا من هذه المعركة حتى دانت له بلاد السند ونشر في ربوعها الإسلام.

* * *

(١) هو أحد أبناء عمومة الحجاج بن يوسف وكان قد عينه على هذا الجيش قائدًا ووجهه إلى بلاد السند ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره وقال فيه الشاعر:

إن المروءة والسماحة والندى ... لمحمد بن القاسم بن محمد
ساسى الجيوش لسبع عشر حجة ... يا قرب ذلك سؤددًا من مولد





(٣٢)
فتح بخارى
سنة ٩٠ هـ

قائد جيش المسلمين: قتيبة بن مسلم الباهلي ومعه ثلاثون ألفًا.

قائد الترك: ملك بخارى وردان خذاه ومعه جموع كثيرة.

وسببها: أن قتيبة قد خرج إلى بخارى وحصرها ثم تركها لشدة أهلها فأتاه كتاب من الحجاج شديد اللهجة يأمره فيه بالتوبة عن انصرافه عن ملك بخارى، ثم أمره أن يصف له البلدة كأنه يراها ففعل قتيبة، فأتاه الرد من الحجاج يعرفه الموضع الذى يأتي البلد منه ويدخله، فتجهز قتيبة وخرج غازيًا إلى بخارى سنة تسعين للهجرة، وجمع وردان حوله الجموع من أعوانه الترك وأتى بجموع هائلة، لكن قتيبة وصل إلى بخارى قبل أن يصل وردان بجموعه فحاصرها، ثم خرج أهل بخارى يقاتلون قتيبة بعد أن رأوا جيش وردان فقاتلهم قتيبة أشد قتال ثم هزمهم فوقف الترك على المرتفعات، فأمر قتيبة بني تميم بالتصدى لهم وكانوا عشرة آلاف بقيادة وكيع، فعبر إليهم النهر وقاتلهم قتال المستميت حتى طردهم من المرتفعات وهُزموا شر هزيمة ثم فتح الله البلد على قتيبة.





(٣٣)
معركة شريش في وادي لكة
سنة ٩٢ـ ٢٨ رمضان

قائد جيش المسلمين: طارق بن زياد[١] ومعه اثنا عشر ألفاً.

قائد الاسبان: الملك لُذريق ومعه سبعون ألفًا وقيل مائة ألف قرر موسى بن نصير والي إفريقيا فتح الأندلس فاستأذن الخليفة الوليد بن عبد الملك، فأذن له بعد أن يبعث فيها السرايا ليتأكد من حالها ومقاومتها، لذلك أرسل سنة ٩١ هـ في شهر رمضان سرية بقيادة طريف بن مالك ومعه خمسمائة مقاتل منهم مائة فارس، فارتاد أطرافها الجنوبية وعاد محملاً بالغنائم، كما اكتشف ضعف المقاومة فيها، عند ذلك أرسل موسى بن نصير مولاه طارق بن زياد على رأس جيش قوامه سبعة آلاف مقاتل ثم أمده بخمسة آلاف آخرين ونزل على صخرة بعد أن عبر المضيق سميت باسمه فيما بعد، وحشد جيشه في وادي لكة، ولما علم ملك أسبانيا لذريق حشد جيشًا كثيفًا واتجه لقتال طارق، ولما تقابل الجيشان في الوادى المذكور في رمضان سنة ٩٢ هـ. رأى المسلمون كثرة عدوهم فقام طارق بهم خطيبًا قبل اللقاء فقال: «أيها الناس أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه، وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لاوزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم، وإن

(١) كان مولى لموسى بن نصير وأحد قادته الذين استكملوا معه فتح إفريقيا وطوعوها وقد ولاه موسى إمارة طنجة، وقد اشتهر بحسن الكلام وقوة البيان والتأثير في سامعيه إضافة إلى الإخلاص في الجهاد وصدق العزيمة وقوة الشكيمة وشدة البأس.

امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراأة عليكم.. ثم قال: واعلموا أني مجيب لما دعوتكم إليه، وإني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لزريق فقاتله إن شاء الله».

ثم التقى الجمعان وحمل طارق وجنوده على العدو حملات متكررة حتى مزقوا جموعهم ثم هجم طارق على لزريق فضربه بسيفه فقتله وقيل إنه لما جرح وتأكد من الهزيمة رمى بنفسه في النهر وحملها النهر إلى المحيط، لذلك لم يعثر عليها وحلت الهزيمة بجنوده وتفرق شملهم، ثم تابع طارق فتح الأندلس وكانت المعارك بعد ذلك أقل شأناً، ثم تبعه موسى بن نصير على رأس جيش كبير قوامه (١٨٠٠٠) مقاتل وبدأ بفتح المدن من الناحية الغربية للأندلس حتى التقى مع طارق في شمال الأندلس قرب طليرة وتابعا الفتح حتى حدود فرنسا.

ومن جيد ما يروى عن طارق أن النبى ﷺ قد بشره بفتحها في رؤيا رآها، فلما ركب طارق البحر يعبر بالجنود غلبته عينه فغفا، فرأى النبي ﷺ ومعه المهاجرون والأنصار وقد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسي (القوس) فقال له النبي ﷺ: يا طارق تقدم لشأنك، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد، فنظر طارق فرأى النبي وأصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه، فاستيقظ من نومه مستبشراً وبشر أصحابه وقويت نفسه، ولم يشك في الظفر والفتح.

ومثل هذه الرؤى لها دلالتها المهمة، وذلك أن هذا القائد رجل صالح مهتم لأمر المسلمين مندفع بإيمانه لنشر هذا الدين، متعلق قلبه مع الله، فجاءت الرؤيا هذه لتبشره وتثبته وتقره للمضي في هذا السبيل.



(٣٤)
فتح سمرقند
سنة ٩٣ هـ

قائد جيش المسلمين: قتيبة بن مسلم الباهلي ومعه أكثر من ثلاثين ألف مقاتل.

قائد سمرقند: الملك غوزك ومعه أكثر من خمسين ألف مقاتل.

تعد سمرقند من أكبر مدن ما وراء النهر ومن أمنعها وأقواها.

وكان سبب الفتح نقض ملكها الصلح الذى كان بينهم وبين قتيبة، فإن الملك السابق طرخون قد رضي بدفع الجزية لكن غوزك قبض عليه وسجنه فمات طرخون ثم نقض غوزك العهد، فسار إليه قتيبة وسير أمامه أخاه عبد الرحمن ومعه الفرسان والرماة وأمره أن يكتم الخبر حتى يفجأ العدو، كما أن قتيبة خطب ببقية الجيش وأعلمهم أن القوم قد نقضوا العهد ثم قال: إني أرجو أن تكون خوارزم والصغد كقريظة والنضير، ثم تقدم وحاصرها شهراً وكان بينه وبينهم قتال، ثم إن أهل سمرقند استنجدوا بمن حولهم من الملوك وقالوا لهم: إن ظفروا بنا أتوكم بمثل ما أتونا به، عند ذلك أمدوه بجيش كله من الأشراف وأولاد الملوك وأهل النجدة لأنهم قالوا: إنما نهزم من قبل سفلتنا من الناس، فعبؤوا جيشهم من كل بطل وصاحب تجربة، وأتى هذا الجيش لكي يبيت قتيبة بغتة، لكن الأخبار وصلت إلى قتيبة فانتخب ستمائة فارس من أشجع الناس وأعطاهم تعليماته لكي يكمنوا لهذا الجيش وعين عليهم أخاه صالح بن مسلم، ثم كمنوا لهم على بعد فرسخين من الجيش ولما اقتربوا تناوشهم الكمين في منتصف الليل من ثلاث جهات ودارت معركة رهيبة بين خيرة فرسان المسلمين وخيرة فرسان الصُّغْد، كما أن قتيبة أراد أن

يتأكد بنفسه من مقدرة جنوده فحضر سرًا وقاتل معهم متخفيًا، وانتهت المعركة بهزيمة هذا الجيش هزيمة منكرة وقتل معظمهم، وأسروا عددًا منهم وحملوا غنائمهم وأتوا إلى عسكرهم، ثم تابع قتيبة حصار سمرقند ورماهم بالمنجنيق حتى أحدث ثلمة ثم أمر الناس بالجد في القتال ودخلوا من الثلمة وصدوا عنهم بالتروس سهام الأعداء، ولما رأى أهل سمرقند ألا سبيل لهم إلا زحزحتهم عن هذه الثلمة وأن مدينتهم على وشك أن تؤخذ عنوة: أرسلوا وفدًا إلى قتيبة: أن انصرف عنا اليوم حتى نصالحك غدًا، فقال قتيبة: لانصالحهم إلا ورجالنا على الثلمة، ثم صالحهم قتيبة على مال جزيل يؤدونه للمسلمين كل عام وأن يخلوا المدينة من المقاتلين، وأن يبني فيها مسجدًا فيدخل ويصلي فيه ويخطب فيه كلما أراد، وأن تهدم بيوت النيران وتزال الأصنام، ثم دخل وبنى المسجد وصلى وجمع الأصنام فحرقها وذاب ما كان فيها من ذهب فَجُمع فكان أكثر من خمسين ألف مثقال. وهنا أسقط في يد الصغد فخرج منها غوزك وتركها ورحل من أراد الرحيل من أهلها.

***

(٣٥)
وقعة بَرَزَنْد
سنة ١١٢هـ

قائد جيش المسلمين: سعيد الحرشي

قائد المشركين: ابن خاقان ملك الترك

سببها: أن أهل الخزر هاجموا بلاد أذربيجان وعملوا على استئصال المسلمين وقتلوا واليها الجراح بن عبد الله الحكمي، فغضب هشام لما حصل، ودعا القائد سعيد الحرشي وعينه واليًا على أذربيجان، وأمده بالجند وانطلق سعيد يجمع الجموع هناك ويستنهض همة المسلمين، فاسترد مدينة خلاط، ثم تقدم نحو مدينة ورثان ـ روثاب ـ بأذربيجان وكان يحاصرها بن خاقان فأرسل سعيد إلى المدينة يحثهم على الصمود وإنه قادم إليهم، وقبض الترك على الرسول وسألوه عن حاله فأخبرهم عن سبب مجيئه، فقالوا تقول لأهل ورثان أن يستسلموا لأنه لامدد لهم، وإلا تفعل قتلناك، وإن فعلت ما نأمرك به نطلق سراحك، فقال: حسن، ثم دنا إلى أسفل سور المدينة وقال لهم: يا أهل ورثان أتعرفونني؟ قالوا نعم قال: لقد أرسلنى القائد سعيد وهو يأمركم بالثبات لأنه قادم إليكم، ففرحوا وعلت أصواتهم بالتكبير فهجم الخزر على الرسول فقتلوه ثم انسحبوا وهكذا ضحى هذا الجندي البطل بحياته من أجل إيصال هذا الخبر إليهم فأنقذ بذكائه مدينة كانت على وشك السقوط ثم التدمير، وجعل حياته ثمنًا لذلك يرحمه الله.

ثم تقدم القائد سعيد نحو أردبيل فرحل عنها الخزر ثم نزل على باجروان فأتى فارس على فرس أبيض وقال: أيها الأمير هل لك في الجهاد والغنيمة؟ قال سعيد:



كيف لي بذلك؟ قال الفارس: هذا عسكر الخزر في عشرة آلاف مقاتل ومعهم خمسة آلاف من أسرى المسلمين قد نزلوا على أربعة فراسخ من هنا. فسار إليهم سعيد ليلاً حتى وافاهم آخر الليل، فوزع قواته في أربع مجموعات وباغتهم وهم نيام فما نجا منهم أحد واستنقذ الأسارى، ثم إن ابن خاقان غضب لما فعله سعيد فاستنهض أصحابه وجمع حشوداً كبيرة ثم تقدم للقاء المسلمين، فالتقوا بأرض برزند، واقتتل الناس أشد قتال وأعظمه وتأخر المسلمون قليلاً وكادت أن تحيق بهم الهزيمة فاستصرخ بهم سعيد ودعاهم للثبات، كما استغاث أسرى المسلمين بهم، وحثوا الجنود على الثبات لا ستنقاذهم ونادوا بالتكبير والتهليل والدعاء إلى الله العلي الكبير، فثبت جند المسلمين وحرض بعضهم بعضًا على القتال فاشتدت نكايتهم للعدو وما هو إلا صبر ساعة حتى ولى العدو منهزمًا، وتابعهم المسلمون يقتلون منهم حتى بلغوا نهر «أرس»، ثم عادوا وأخذوا الغنائم وأطلقوا الأسرى، ثم عاد الخزر فتجمعوا فأوقع بهم سعيد عند نهر البيلقان فكان الغرقى أكثر عدداً من القتلى.

* * *



(٣٦)
معركة بلاط الشهداء وتسمى بواتييه
سنة ١١٤هـ

قائد جيش المسلمين: عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ومعه ثمانية آلاف مقاتل.

قائد الإفرنج: شارل مارتل ومعه حوالى مائة ألف مقاتل..

لم يكن توغل المسلمين في هذه البلاد لأول مرة فقد سبق إليها السمح بن مالك سنة ١٠٢ هـ وحدثت معركة كبيرة استشهد فيها السمح ثم انسحب عبد الرحمن الغافقي ببقية الجيش من المعركة، وفي سنة ١٠٧ هـ توغل عنبسة بن سحيم الكلبي حتى بلغ مدينة ليون واستولى عليها واستشهد في أثناء عودته وتقهقر المسلمون إلى مدينة تربونة، وفي سنة ١١٤ هـ تابع عبد الرحمن الغافقي فتح هذه الأقاليم، فاستولى على أكيتانيا، ثم استعان دوقها بشارل مارتل ملك الإفرنج والتقى الجيشان في سهل بواتييه قرب تور، ودارت معركة رهيبة ـ بعد مناوشات استمرت ثمانية أيام ـ كان النصر في بدايتها لصالح المسلمين ثم صاح فجأة صائح فقال: إن الإفرنج قد استولوا على غنائم المسلمين، التي أبقاها عبد الرحمن بعيدة عن مكان المعركة كيلا تثقل المسلمين، فلما سمع الجنود هذا الصوت اضطربوا وخافوا على غنائمهم الكثيرة أن تسقط بأيدي الإفرنج وتنادوا لتخليصها منهم، لكن عبد الرحمن صاح فيهم أن يثبتوا لأنها مكيدة، فاضطربت أحوال الجيش وضاع صوت عبد الرحمن وسط الغوغاء، بل انكشف مكانه فرمي بسهم قاتل وسقط شهيداً، ثم انسحب الجيش تحت جنح الظلام تاركاً القتلى والغنائم التي اضطربوا من أجلها. ولم يتبعهم شارل مارتل للإجهاز عليهم فقد

اكتفي بهذا النصر كما خشي أن يكون انسحابهم لمكيدة لأنه كان حذرًا ومتأنيًا إلى درجة الجبن. وتعد هذه المعركة من المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلامي، إذ لم يحاول المسلمون بعدها التقدم إلى هذه البلدان فميا بعد وتوقفت الفتوحات الإسلامية عند جبال البرانس.

ومن العبر التي نستفيدها: أن طريق الفتح المادي مسدود، فقد كان معظم من في الجيش يسعون إلى الفتح من أجل الغنائم، كما كانت قلوبهم معلقة فيها، ولقد اكتشف عبد الرحمن هذا في نفوس جيشه وحِرْص معظم أفراده على جمع الغنائم والعودة إلى ديارهم مثقلين بها، لذلك جمعها في مكان أمين وعين قسمًا من جنوده لحراستها ولم يشأ أن تكون معهم حتى لا ينشغل الجند بها، ومع ذلك فإن هذا الإجراء لم ينفع مع من تعلق قلوبهم بها، فنسوا ذكر الله وما أعد الله للمجاهدين. فكانت الغنائم نقطة الضعف عندهم ومنها جاءهم الفشل.







(٣٧)
موقعة جَزَّة
سنة ١١٩هـ

قائد المسلمين: أسد بن عبد الله القسرى ومعه سبعة آلاف مقاتل.

قائد الترك: الملك خاقان ومعه خمسون ألف مقاتل.

مكان المعركة: في شمال شرق إقليم خراسان مع إلتقائه بحدود بلاد ما وراء النهر.

سببها: أن ملك الترك خاقان، كان كثير الغدر بالمسلمين، وطالما نقض العهد، كما استمال إلى جانبه عددًا من المسلمين المنشقين الطامعين[١] بالمال والسلطان، وسار في سياسة ماكرة هدفه استئصال المسلمين من بلاد ما وراء النهر وخراسان، وقد استفحل أمره وأكثر من قتل المسلمين وأسرهم، وجال هو وابنه في بلاد عريضة. وكان أسد بن عبد الله قد وزع جنده في بلاد الخُتّل للفتح، فانتهزها خاقان فرصة للإيقاع بأسد، وعلم أسد بنية خاقان فقدم الأثقال والغنائم والنساء أمامه وجعل عليها إبراهيم بن عاصم، وسار أسد ببقية الجيش وعبر نهر بلخ وقبل تمام العبور أدركهم خاقان فقاتلوه حتى عبروا وقتل من المسلمين عدد ثم حجز بينهم الليل وفي الصباح عبأ أسد قواته لمواجهة خاقان فلم يجده فاستغرب من ذلك، فاستشار أصحابه، فقالوا: جزع من لقائك قال: لا والله إنما حدث غير ذلك، ربما أسر بعض جنودنا فأخبروه بالأثقال فطمع بها، وأرسل أسد إلى إبراهيم بن عاصم أن يثبت في قتال خاقان وهو قادم لنصرتهم، ووصل خاقان إلى الأثقال

(١) منهم الحارث بن سُرُيج الذى أمد خاقان بالرجال وساعده وأنقذه من موت محقق.

قبل وصول أسد وخندق إبراهيم حول الأثقال وقاتل من معه بضراوة حتى إذا طال القتال وبدأت قوات خاقان تخترق دفاعات المسلمين وكان عددها يفوق الخمسين ألفًا، وصل أسد واشتبك مع خاقان فأمر جنده بالانسحاب بعد أن اقتطعوا جزءًا كبيرًا من الغنائم وأسروا كثيرًا من الرجال والنساء ثم لاذوا بالجبال، ثم نزل أسد بمن معه ببلخ وقد أصيبوا في هذه الجولة، وصمم أسد على الانتقام من خاقان، وفي الشتاء وزع خاقان قواته للغزو حيث قيل له إن أسدًا لايقاتل في الشتاء، وعلم أسد بما حصل فجمع جنده وخطب فيهم وحضهم على تقوى الله وطاعته وعلى الجهاد واستخلاص الأسرى وكان ذلك بعد صلاة عيد الأضحى ثم خرج في سبعة آلاف وصلى ركعتين قبل المسير ودعا الله وأطال وفعل مثله بقية الجيش ثم التقى الطرفان في جَزَّة وثبت المسلمون كما ثبت الترك ومن معهم من المنشقين، ثم أنزل الله نصره على المسلمين وهزموا الترك وفر خاقان، وطارد المسلمون فلول جيشه وقتلوا منهم مقتلة كبيرة واستخلصوا الأسرى والأموال وضعف أمر خاقان بعدها فاغتاله أحد قادة الترك وانتهى شره، ولما بلغ خبر مقتله هشام بن عبد الملك خر ساجدًا شكرًا لله...

❊ ❊ ❊

(٣٨)
وقعة الأصنام
سنة ١٢٤ هـ

حدثت بين العرب والبربر في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٤ هـ.

قائد المعركة: حنظلة بن صفوان الكلبي.

قادها من المنشقين: عكاشة الخارجي ـ وعبد الواحد الهواري.

سببها: أن البربر كانت تنتفض بين حين وآخر على المسلمين، ولم يثبتوا على الإسلام كما انتشر بينهم فكر الخوارج وشق عصا الطاعة على الخليفة، واستحلال دماء المسلمين، فقاموا بأعمال شنيعة وفظيعة، ومما زاد الأمر صعوبة، اتحاد البربر مع الخوارج لقتال جند الخليفة وتقويض أركان دولة بني أمية، فاجتمع لهم بذلك حشد كبير، وعاثوا فساداً في المغرب، حتى حصروا القيروان وضيقوا على واليها، وكانت القيروان حاضرة المغرب ومقر الوالي على إفريقيا، ولما بلغ هشام بن عبد الملك ما فعله هؤلاء، وكان هؤلاء قد أنزلوا بالعرب وفرسانهم نكبة كبيرة في موقعة الأشراف، قال عبد الملك والله لأغضبن للعرب غضبة وأسيّر جيشًا يكون أوله عندهم وآخره عندي، فأرسل جيشًا بقيادة كلثوم بن عياض، لكنه لم يحرز نصراً وقتل هناك، ثم أرسل جيشًا بقيادة حنظلة بن صفوان، ولما وصل القيروان قصده عكاشة في جمع عظيم من البربر، وأعانه عبد الواحد الهواري، فصدهم حنظلة عن القيروان وقتل منهم جماعة، ثم إن البربر حشدوا ما يزيد على ثلاثمائة ألف مقاتل ونزلوا في مكان يسمى الأصنام ـ على بعد ثلاثة أميال من القيروان ـ وحشد حنظلة جيشًا كبيراً من أهل القيروان وخرج العلماء يحثون الناس على

الجهاد والصمود، ويذكّرونهم بما فعل البربر والخوارج بهم من القتل والتنكيل والاسترقاق وسبي النساء والذرية، وتكاثر الناس مع حنظلة وقد ملئت قلوبهم حماسة، ودارت معركة رهيبة بين الطرفين وصبر الفريقان، ثم هزم الله البربر والخوارج ونصر المسلمين وقُتل عبد الواحد وأُسر عكاشة وقتل منهم ما يزيد عن مائة وثمانين ألفا.

قال الليث بن سعد: ما غزوة إلى الآن ـ أي ١٢٤ هـ ـ أشد بعد غزوة بدر من غزوة العرب بالأصنام.

❊ ❊ ❊



(٣٩)
فتح هرقلة
في شوال من سنة ١٩٠هـ

قائد جيش المسلمين الخليفة هارون الرشيد ومعه عدد من القادة المسلمين أمثال داود بن عيسى بن موسى، وشراحيل بن معن بن زائدة وعبد الله بن مالك.

عدد جيش المسلمين (١٣٥٠٠٠) مقاتل سوى المتطوعة.

قائد جيش الروم نقفور.

سبب الفتح ما ذكره المؤرخون عن ملكة الروم إيريني أنها كانت تؤدي الجزية لهارون الرشيد، فعزلها الروم وتولى مكانها نقفور، فوجد في مملكته قوة لتحدي المسلمين وأرسل إلى هارون الرشيد رسالة جاء فيها: «من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب؛ أما بعد؛ فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل أمثالها إليها، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ماحصل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك» فكتب هارون الرشيد على ظهر الكتاب ما يلي: «بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يابن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام» فجمع جيشًا كبيرًا وتوجه نحو أرض الروم وقصد هرقلة فحاصرها ثلاثين يومًا ثم فتحها وسبى أهلها وأخربها، والتقى مع نقفور



بمعركة قرب أنقرة وكانت حامية الوطيس انتصر فيها الخليفة على نقفور الذي هرب ثم أرسل في طلب الصلح لما رأى عساكر المسلمين تجوس بلاده من كل اتجاه ووافق الرشيد على الصلح بعد أن دفع نقفور أضعاف ما كانت تدفعه الملكة

فمن يطلب لقاءك أو يرده   إيرفبالحرمين أو أقصى الثغور

يني

وكان الرشيد يلبس قلنسوة مكتوبًا عليها «غاز حاج» وفي هذا يقول الشاعر:

وقد وقعت في الأسر خطيبة ابن نقفور، فأرسل إليه كتابًا يستعطفه لردها، وهنا أذكر ما جاء في الكتاب للمقارنة بين الخطابين وأن القوة تحول الخصم إلى الموادعة والتذلل، قال نقفور: «لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم ـ وهنا أخَّرَ اسمه مهابة وخوفًا ـ سلام عليكم، أما بعد أيها الملك فإن لي إليك حاجة لاتضرك في دينك ولا دنياك هينة يسيرة، أن تهب لا بني جارية من بنات أهل هرقلة كنت قد خطبتها على ابني فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت والسلام عليك ورحمة الله وبركاته» فأعادها الرشيد له محملة بالمتاع والعطور والآنيه والزبيب والتمور..

* * *



(٤٠)

فتح صقلية

سنة ٢١٢ هـ

قائد جيش المسلمين: العالم الفقيه المجاهد أسد بن الفرات.

عدد جيش المسلمين: ١١٠٠٠ مقاتل.

قائد صقلية: بلاطة.

سبب الفتح: أن الروم كانوا يغيرون على سواحل تونس من قواعدهم في جزيرة صقلية، وقد أزعج هذا المسلمين وسبب لهم خسائر كبيرة في الأرواح والأموال والسبي. وكان المسلمون يردون عليهم بغارات مماثلة وينزلون إلى البر الصقلي فيقتلون ويأسرون ويعودون بالغنائم، ولكنهم لم يفكروا بالإقامة فيها وإنما عدوا غاراتهم تأديبية للروم، وفي سنة ٢١٢ هـ تولى على تونس زيادة الله بن الأغلب وعزم على غزو صقلية فجهز جيشًا وأسطولاً وولى عليه أسد بن الفرات وانطلق غازيًا لقطع دابر الأسطول الرومي الذي كان يعمل بقيادة «فيمي» الذي أرعب سكان الساحل وسفن التجار، ثم إن «فيمي» ملَّكَ صقلية وانفرد عن الروم ولقب بالملك، فخرج عليه «بلاطة» وملّك «سرقوسة» وطرد «فيمي» الذي غضب وانضم إلى زيادة الله بن الأغلب مع مَنْ بقي من أتباعه، وسار الجيش إلى صقلية فلقيهم جمع من الروم فقاتلوهم وأمر المسلمون «فيمي» أن يعتزلهم فلا يريدون الاستعانة بكافر، وصبر المسلمون في القتال وهزموا الروم وهرب «بلاطة» إلى

مدينة أخرى (قلورية) وثبّت المسلمون أقدامهم في عدة حصون في الجزيرة، ثم إن المسلمين حصروا سرقوسة برًا وبحرًا ودارت حول حصونها معارك عنيفة وحُصر المسلمون بين عساكر سرقوسة والمدد الذي وصلهم من «بالرمو»، فخندق المسلمون حول أنفسهم وقاتلوا أعداءهم بشجاعة نادرة، كما وصل أسطول من القسطنطينية مددًا لأهل صقلية، وانتشر بين المسلمين وباء قاتل وباتوا في أسوأ حال على أرض الجزيرة، لكنهم لم ييأسوا من نصر الله لهم وقد قوّى من عزيمتهم قائدهم أسد بن الفرات، إلا أنه أصيب تحت أسوار سرقوسة وقضى شهيدًا، فتولى القيادة خلفًا له محمد بن أبي الجواري، وحاول الانسحاب بجيشه، فإذا بأسطول الروم يسد عليهم الخليج وهنا أحرق المسلمون سفنهم وعزموا على المقاومة ثم انتشروا في الجزيرة يفتحون مدنها الداخلية مثل «ميناو» و «جرجنت»، وبينما هم كذلك وصل جيش من الروم مددًا لأهل الجزيرة ودارت معركة بينهم وبين المسلمين أمام مدينة «قصريانة» التي كان يحاصرها المسلمون، فألحقوا بجيش الروم هزيمة منكرة فتفرق ودخل بعضهم المدينة المحاصرة، وتوفي محمد بن أبي الجواري وخلفه زهير بن غوث الذي تابع الفتوحات، لكن المسلمين أصيبوا بعدة نكسات لتوافر مدد الروم على الجزيرة والعمل على عدم سقوطها بأيدي المسلمين ثم وصل إلى المسلمين مدد من والي إفريقيا، كما وصلهم مدد من أهل الأندلس الذين خرجوا غزاة في البحر، واجتمع للمسلمين أكثر من ثلاثمائة سفينة ونزلوا الجزيرة وتابعوا الفتح وفكوا الحصار عن المسلمين وفتحوا مدينة «بالرمو» ثم فتحوا مدينة قصريانة[1] بعد معارك عنيفة، ودامت الغزوات المتتابعة على صقلية من كل اتجاه والمدد يصل من الروم لأتباعهم ومن المسلمين لأتباعهم وضم المسلمون معظم الجزيرة ثم توفي زيادة الله بن الأغلب سنة ٢٢٣ هـ وهدأت الحروب واحتفظ كل فريق بما حازه وابتدأت صقلية تشهد عصرًا إسلاميًا في ولاية العباس بن الفضل الذي فتح عاصمة صقلية ـ قصريانة ـ وبنى فيها مسجدًا وخطب الجمعة واتخذها عاصمة للجزيرة.

وبقيت مدن ومعاقل وحصون بأيدى الروم تهدد كيان المدن الإسلامية الناشئة

(١) فتحها العباس بن الفضل سنة ٢٤٤ هـ ويعد أفضل من تولى قيادة الجيوش في صقلية مدة إحدى عشرة سنة حيث توفي سنة ٢٤٧هـ، وقد نبش قبره الروم وأحرقوا جثته من شدة حنقهم عليه لأنه حاربهم بلا هوادة.

على أن ولاة إفريقيا من بني الأغلب لم يتركوا المسلمين أيضًا دون مدد، فلما كانت ولاية ابراهيم بن أحمد بن الأغلب على إفريقيا اهتم بصقلية خصوصًا بعد أن دب النزاع بين المدن الإسلامية فانشغلوا ببعضهم وتركوا الجهاد، فأرسل ابنه أبا العباس وأمده بجيش قوي، فنزل صقلية وأصلح أمر المسلمين ثم بدأ جهادًا قويًا ضد الروم وفتح مدنًا وحصونًا كان من أهمها قاطبة مدينة «سرقوسة» التي استعصت على القادة قبله، ثم استدعاه والده إلى تونس فعاد وخلف ولديه، وفي تونس ولاه أبوه مكانه عليها وخرج هو بنفسه مجاهدًا إلى صقلية مع نية الحج بعد إتمام فتح بقية المدن ففتح مدنًا وحصونًا كثيرة كان أهمها مدينة «طبرمين» ولما علم ملك الروم بسقوطها خلع التاج ولم يلبسه سبعة أيام وقال: «لايلبس التاج محزون» وكان كلما فتح مدينة أو حصنًا امتلكه وأجلا أهله منه ليبقى بأيدى المسلمين فلا ينتقض عليه ثانية ثم مرض وتوفي في صقلية بعد أن حقق أمنية الجهاد دون الحج رحمه الله.

***

(٤١)

الحروب مع بَابَكْ الخُرَّمي ومعركة البُذّ

سنة ٢٢٢ هـ

سببها: أن بَابَك الخرمي ظهر في إقليم الجبال في منطقة بحر قزوين الغربية وهي منطقة مهمة جدًا وقريبة من قلب الدولة العباسية وعاصمتها بغداد. ولهذا فإن بابك كان يشكل خطرًا على الخليفة. إضافة إلى خطره المتمثل في معتقداته المجوسية ـ مثل جواز نكاح المحارم وتناسخ الأرواح ـ كما كان سفاكًا للدماء، فقد ذكر أن عدة من قتلهم من ابتداء ظهور أمره سنة ٢٠١ هـ إلى أن لاقى حتفه سنة ٢٢٢ هـ يزيد على مائتين وخمسين ألفًا، فضلاً عن الأسرى والسبايا من النساء والأولاد وفجوره بالنساء، فكان لايسمع بامرأة حسناء في البلدان التي خضعت له أو المجاورة لها إلا أخذها بالقوة بعد أن يقتل أهلها وعشيرتها، وقد غذّى الروم حركته للنيل من الدولة العباسية فتصدى له الخليفة المأمون، لكنه مات ولم يحرز عليه نصرًا ثم تصدى له المعتصم فكسر له عددًا من الجيوش، ثم رماه بقائده الأفشين فواقعه عدة سنوات وبحذر شديد حتى لايصيبه ما أصاب القادة قبله، وفي هذه المدة عرف الأفشين خططه ومكائده ومكامنه الخطرة، ثم بتحريض من المعتصم وبالإمدادات المتوالية من الجند والمال تقدم الأفشين في البلدان الخاضعة لبابك إلى أن حصره في مدينته الحصينة «البذ» وكانت الوقعة الكبيرة في ٢٠ رمضان سنة ٢٢٢ هـ حيث احتل الأفشين الجبال المجاورة لها وحفر الأنفاق وبنى

ورغبتهم في الهجوم إلى أن كشف أماكن الكمائن كلها، عند ذلك وضع الخطة وأمر بالهجوم، والتقى الجيشان في حرب طاحنة، وظن بابك أنه سيهزم جند الخلافة كعادته، لكن سيل الجنود المسلمين تدفق للأمام، وتخطى كل العقبات والكمائن، كما تخطى العجلات وتحاشاها الجنود ولم يكن لها أثر يذكر - دحرجت عليهم عجلات من أعلى الجبال وهي محملة بالصخور والنيران - واستمر القتال حتى الغروب إلى أن وصلوا إلى البذ عاصمة بابك وملجئه، فدخلوها وعلوا قصورها ودار القتال في أحيائها، فلما رأى بابك ماحل به هرب مع بعض أهله وحمل معه الزاد، ثم وقع بقية أهله في الأسر، وفك المسلمون الأسرى الذين كانوا في حوزته وسجونه من النساء والأولاد وكانوا (٧٦٠٠٠) وتابعه الأفشين وبث خلفه المطاردين، فكانت وجهته أرمينيا، فأرسل إليهم أن يقبضوا عليه ويسدوا عليه المنافذ إلى أن وقع في قبضة سهل بن سنباط، الذي تظاهر بإخفائه، ثم أرسل إلى الأفشين يعلمه بخبره فسير له الأفشين من قبض عليه وسيق مع أهله وأخيه إلى المعتصم فشهّر به في سامراء وطيف به على فيل ثم قتل وصلب بدنه في سامراء وأرسل رأسه إلى خراسان.

* * *

(٤٢)
فتح عمورية
سنة ٢٢٣ هـ

سببها: خروج ملك الروم توفيل بن ميخائيل بمائة ألف جندي إلى ثغور المسلمين فأوقع فيها خسائر فادحة وتوجه إلى مدينة «زبطرة» فقتل الرجال وسبى النساء والأطفال، ثم أغار على «ملطية» وفعل بها ما فعله بزبطرة، وزاد في غيه فسمل أعين الرجال وقطع آذانهم وجدع أنوفهم، وعاد ظافرًا قبل أن تصل نجدات المسلمين، وكانت من بين السبي امرأة هاشمية فصاحت وامعتصماه، فبلغ حالها المعتصم فقال: لبيك، لبيك، ونهض من ساعته وأعلن النفير العام، وجهز جيشًا كأحسن مايكون عدة وسلاحًا واصطحب معه خيرة قادته؛ مثل الأفشين وأشناس وإيتاح وجعفر بن دينار وعجيف بن عنبسة. ولما وصل المعتم إلى أرض الروم وزع جيشه إلى ثلاثة اتجاهات، وقاموا بعلميات هجومية ضد المواقع والقلاع الرومية، وتوغل الأفشين قريبًا من أنقرة وهناك اصطدم بجيش توفيل وصمد المسلمون وكانت الدائرة آخر النهار على الروم فقتل منهم خلق عظيم وتفرق جند ملك الروم ونجا هو بعد أن أصيب بجراح، وأرسل في البلاد يطلب المزيد من المدد، كما أن المعتصم علم بمواقعة الأفشين لملك الروم من بعض الأسرى فسارع لنجدته، ثم اجتمعت الجيوش الثلاثة بعد ذلك وقرروا مهاجمة عمورية لأهميتها عند الروم، وأطبقت عليها جيوش المعتصم في ٦ رمضان وبدأ الحصار والهجمات الليلية على المسلمين من أهل عمورية، وكان فيها من القادة «ناطس» و «وندو»، وصعب الأمر على المسلمين لحصانتها وشدة المقاومة فيها، ثم إن رجلاً من المسلمين كان

قد أسره الروم بعمورية وتنصر، أتى المعتصم سراً[1] وأطلعه على مكان في السور ضعيف كان السيل قد هدمه، فأعاده الروم على وجه السرعة وجعلوا الشرف من الخشب فنقل المعتصم أعماله الحربية مواجهًا لهذه الثلمة، وأمر الحدادين ورماة السهام بأن يرموها بسهام محماة ملتهبة، فاحترقت الشرفات وسقط السور، واندفع المسلمون يقاتلون على هذا الموضع بلا هوادة ليلاً ونهاراً، وقد تحمل كل جيش القتال يومًا والروم يحاولون سد الثلمة فلا يستطيعون واستمر الحال ثلاثة أيام وفي هذا اليوم كان دور جيش المعتصم وقائده إيتاخ، فَجَدَّ في دخول المدينة، وتوسعت الثلمة، واستطاع المسلمون دخول المدينة ووضع السيف في المقاتلين، وانتقم المعتصم للمسلمين، ثم ساق السبي والغنائم وأمر بإحراق المدينة وتسوية أسوارها بالأرض. فكانت عمورية ضحية غدر ملك الروم. وكانت مدة حصارها إلى أن فتحت خمسة وخمسين يومًا، وخلد فتحها أبو تمام في قصيدته المشهورة:

السيف أصدق إنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

وفيها:

فبين أيامك اللاتي نُصرت بها ... وبين أيام بدر أقرب النسب

* * *

(١) اقرأ قصتنا «مؤمن في عمورية».



(٤٣)
موقعة وادي سليط
في المحرم سنة ٢٤٠ هـ

قائدها: محمد بن عبد الرحمن الأموي أمير الأندلس.

سببها: أن أهل طليطلة كانوا على خلاف مع الأمير محمد ومن قبل مع أبيه فسار لإخضاعهم، فاستعانوا بملك جليقية وبملك البشكنس، فأرسلا هؤلاء جيشًا كثيفًا طمعًا في إلحاق الهزيمة به ومِلْكِ طليطلة، وسمع الأمير محمد بما حصل منهم، فلما اقترب من طليطلة عبأ أصحابه ووضع الكمائن في وادي سليط، وتقدم لملاقاة أهل طليطلة وحلفائهم، فلما رأوه في قلة من عسكره سارعوا إلى قتاله وطمعوا فيه فلما تراءى الجمعان ونشب القتال والتحم الجيشان خرجت الكمائن من كل جهة على المشركين وحلفائهم فقتل منهم ما لا يحصى، وقيل: إن عدد القتلى عشرون ألفًا، وقد بقيت جثث القتلى دهرًا طويلاً في وادي سليط، وباء ملوك الإفرنج في غم وخيبة وخسران.

قال المؤرخ ابن عذارى عن هذه الموقعة: «هي من أمهات الوقائع ولم يعرف بالأندلس قبلها مثلها».





(٤٤)
فتح مدينة قصريانه
٢٤٤هـ

ذكرنا باختصار فتح هذه المدينة في معرض الحديث عن فتح صقلية. وقد دارت معارك قوية وكبيرة في صقلية منها المعارك التي أدت إلى فتح صقلية، كان الفتح في ٥ شوال من سنة ٢٤٤ هـ وقائد المسلمين هو العباس بن الفضل بن يعقوب، الذي تولى إمارة صقلية سنة ٢٣٦ هـ واستمر مجاهداً منذ ولايته وحتى وفاته سنة ٢٤٧ هـ، فقد دأب هذا القائد على شن الغارات على الروم في ماتبقى من قلاع وحصون ومدن في صقلية، ولم ينقطع لا في الصيف ولا في الشتاء القارس وفتح قلاعًا وحصونًا كثيرة، ثم حاصر سرقوسة وأنزل الدمار في أرباضها وزروعها كما هاجم مدينة قصريانة الحصينة، حيث نقل ملك الجزيرة مقر حكمه من سرقوسة إليها لحصانتها، فلما سار إلى قصريانه سير جيشه بحراً وبراً، فلقيهم في البحر أربعون سفينة للروم، فاقتتلوا أشد قتال وهزم الله الروم واستولى المسلمون على عشر سفن، فلما حل الشتاء سير سرية إلى قصريانه، فخربوا ما حولها وأسروا عدداً من الروم، فأخبر أحد الأسرى عن مكان سري يمكن منه فتح المدينة، وانطلق تحت جنح الظلام ألفا فارس من خيرة أفراد الجيش تحت قيادة أبي العباس وكمن قريبًا من الأبواب، وسير مجموعة خفيفة بقيادة عمه رياح، فنصبوا السلالم وصعدوا الجبل، ثم وصلوا إلى سور المدينة قريبًا من الصبح والحرس نيام لعلمهم أن المسلمين لا يغزون في الشتاء، فدخل المسلمون كلهم ووضعوا السيف في الروم وفتحوا الأبواب لبقية الجند ودخلوا المدينة عنوة، وصلوا الصبح فيها،

ثم بنى من فوره مسجداً ونصب فيه منبراً وخطب فيه يوم الجمعة، وغنموا منها أموالاً طائلة، وأصيب الشرك يوم سقوطها بذل عظيم.

ولما سمع ملك الروم بسقوطها أرسل ثلاثمائة سفينة حربية مشحونة بالسلاح والجنود، فالتقى بهم أبو العباس وأنزل بهم هزيمة منكرة وفروا هاربين، واستولى المسلمون على مائة سفينة، ثم عاد أبو العباس إلى قصريانه وحصنها وشحنها بالعساكر وفي سنة ٢٤٧ هـ اعتل أبو العباس ومات بعد ثلاثة أيام في ٣ جمادى الآخرة ودفن قريبًا من قرقنة، ولقد نبش الروم قبره وأحرقوا جثته حنقًا وحقداً وما ذلك إلا لما قام به من جهاد فاق من سبقه من المسلمين على أرض هذه الجزيرة.

* * *

(٤٥)
معركة قلمية
سنة ٢٧٠ هـ ربيع الأول

سببها: أن الروم اجتمعوا للإغارة على ثغور المسلمين وقصدوا طرسوس وكان عددهم مائة ألف مقاتل يقودهم عدد من كبار قادتهم وحملوا معهم الصليب الأعظم مع صلبان أخرى وأعلام وديباج، فخرج إليهم والي طرسوس ليلاً (واسمه بازمار) وبيتهم[١]، وقتل منهم سبعين ألفًا وقتل عددًا من قادتهم الكبار واستولى المسلمون على صليبهم الأعظم، وهو من ذهب مكلل بالجواهر، وكانت معركة مشهورة ذل الكفر فيها لسنوات، وفي سنة ٢٧٨ هـ حاصر بازمار شطيّة، لكنه أصيب بحجر منجنيق فأدى ذلك إلى وفاته رحمه الله.

❋ ❋ ❋

(١) بيتهم: أي هاجمهم ليلاً. وطرسوس مدينة تركية قريبة من سهل أضنة المشرف على البحر المتوسط.



(٤٦)
معركة الحدث
شعبان سنة ٣٤٣ هـ

تعد هذه المعركة من أشهر وقائع سيف الدولة الحمداني مع الروم فقد كانت له خلال مدة ولايته على حلب وماحولها أربعون موقعة كبيرة انتصر في بعضها وهزم في بعضها الآخر، وقد سد سيف الدولة هذا الثغر العظيم أمام قوة الروم المتزايدة ضد المسلمين في وقت شُغل فيه بقية العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه بفتن داخلية، وظهور دعوات باطنية كثيرة، وانحراف كبير عن منهج الإسلام، وكان ملك الروم الذى يسمى الدُّمُسْتُقْ وهو كما يروي ابن الأثير لقب لكل من حكم الولايات الرومية الواقعة شرق القسطنطينية، وقد سماه صاحب تاريخ الإسلام الدكتور حسن إبراهيم حسن «فردس» وسماه ابن الأثير «نقفور» الذي أصبح ملك الروم فيما بعد.

وكان سببها أن سيف الدولة أغار على «زبطرة» و «ملطية» فقتل وسبى ثم رجع إلى درب «موزار» فوجد عليه قسطنطين بن الدمستق فأوقع به وقتل صناديد رجاله ثم عبر الفرات الأعلى وأوغل في بلاد الروم والتقى بجيش الدمستق فهزمه وقتل رؤوس قادته وأسر قسطنطين بن الدمستق بعد أن أصيب بجراح في وجهه فقال أبو فراس الحمدانى يمدح سيف الدولة.

فآب بقسطنطين وهو مكبل   تحف بطاريق به وزرازر

وهنا قوي سيف الدولة وأراد بناء قلعة عظيمة في موقع متقدم في الثغور فاشتد ذلك على ملك الروم فجمع جيشًا كبيرًا من عظماء مملكته ومن البلغار والروس وقصد الثغور بهذا الجيش الجرار، ولم يكن مع سيف الدولة سوى جيش صغير،



فهاب اللقاء أولاً ثم عزم مع جنده وقادته على لقاء العدو، وصبروا في القتال وأنزل الله نصره على المسلمين وطلب سيف الدولة الدمستق فولى هاربًا منكسراً وقتل من الروم خلق كثير ووقع منهم في الأسر خلق كثير، وكان من جملة الأسرى صهر الدمستق وابن بنته وكثير من القادة، وبنيت قلعة الحدث وأصبحت شوكة في حلوق الروم فقال أبو الطيب يصف معركة الحدث[1]:

بناها علي والقنا تقرع القنا ... وموج المنايا حولها متلاطم

نثرتهم فوق الأحيدب نثرة ... كما نثرت فوق العروس الدراهم

* * *

(١) تقع إلى الشمال الشرقى من مدينة حلب، دخلت في حوزة المسلمين منذ خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثم جدد الخليفة العباسى المهدى عمارتها سنة ١٦٢ هـ وقلعتها على جبل يسمى الأحيدب، احتلها الروم واستعادها سيف الدولة الحمداني.



(٤٧)

استيلاء الروم على حلب

٣٥١هـ

من المعارك الأربعين التي كانت بين سيف الدولة الحمداني والروم معركة الاستيلاء على حلب، وكانت نصراً سجله «الدمستق» بعد هزائمه المتكررة على سيف الدولة، وفاقت في خسارتها ماخسره الروم في مواقع كثيرة، كان عدد جيش الدمستق يفوق مائتي ألف مقاتل، أتى زاحفًا يدمر أمامه كل شيء، حتى وصل إلى قيسارية[1]، فترك معظم جيشه وأتى بجزء منه وكبس، ضواحي حلب ولم يعلم به سيف الدولة، فتهيأ على عجل ولاقاه خارج حلب فهزم سيف الدولة وقتل جماعة من جنده وأبناء أخيه، وظفر الدمستق بدار سيف الدولة فنهبها بما فيها من سلاح ومال ودواب، ثم هدموا ثلمة في سور حلب ودخلوها، ودافع أهل حلب عن مدينتهم وردوا المغيرين وكبدوهم خسائر فادحة فارتدوا عنها إلى جبل جوشن حيث أتاهم بقية الجيش، وبدلاً من متابعة العدو لدحره بعيدًا عن حلب قام أهل حلب والشرطة بنهب بعضهم بعضًا، ووقع الشغب وحدثت فتنة عمياء أدت إلى تخلي المدافعين عن السور والعدو ليس ببعيد يرقب حلب، فعادوا على عجل وصعدوا الأسوار ورأوا الفتنة قائمة، ففتحوا الأبواب في غفلة من الناس وأعملوا سيفهم في رقاب الجميع واعتصم الناس بالقلعة ووقع في الأسر الآلاف ثم ألقي حجر على ابن أخت الدمستق فقتله، فانتقم الدمستق من الأسرى وقتل الرجال قال أحد المؤرخين: إن سقوط حلب بيد الروم تعدل كل انتصارات سيف الدولة.. ذكرتُ هذه الموقعة لبيان نتيجة الفرقة.

---

(١) قيصرية.



(٤٨)
فتح رمطة وواقعة المجاز «في صقلية» في سنة ٣٥٤ هـ

قائد جيش المسلمين: الحسن بن عمار

قائد جيش الروم: مانويل، في ٤٠ ألف مقاتل

سببها: أن المسلمين حاصروا مدينة رمطة فأرسل أهلها يطلبون المدد من ملك الروم فأرسل إليهم أربعين ألف مقاتل، وأتى الجيش فنزل عند مسيّنا، وطلب أمير صقلية من المعز حاكم إفريقيا معونة فأرسل إليه نجدة، أما قائد الجيش فترك قسمًا من جيشه أمام رمطة وبرز بالقسم الباقي لقتال الروم، وكانوا أضعافًا مضاعفة من حيث العدد والعدة، ودارت رحى معركة عنيفة والروم صامدون واثقون من تفوقهم العددي وصبر المسلمون وتعاهدوا على عدم الفرار، والموت في سبيل الله، ومع ذلك فقد وصل العدو إلى خيامهم، وحمل الحسن بن عمار على جموع الروم ومن ورائه جنده كما حمل مانويل أيضًا وتلاحم الناس وسدد المسلمون إلى مانويل طعنات عدة لكنها لم تؤثر فيه لكثرة ملابسه ودروعه، فقتلوا فرسه فسقط أرضًا ودارت حوله المعركة وتمكن المسلمون من قتله وقتل عدد من قادة جيشه، فانهزم الروم أقبح هزيمة وسقط أغلبهم في جرف صخري ولجأ قلة منهم إلى مدينة ريو الإيطالية، وعاد المسلمون لجمع الغنائم الكثيرة فوجدوا سيفًا كتب عليه: «هذا سيف هندى وزنه ١٧٠ مثقالاً طالما ضُرب به بين يدي رسول الله ﷺ».

ثم عاد المسلمون إلى رمطة فحاصروها وشددوا عليها الحصار حتى فتحوها عنوة، ثم عبر المسلمون مضيق مسينا إلى «ريو» ودمروا معظم الأسطول الرومي وكثر القتلى في الروم، وسيروا سرايا في البر الإيطالى فغنموا وسبوا. وقد سميت بوقعة المجاز لأن المسلمين جازوا مضيق مسينا إلى البر الإيطالي.

(٤٩)

معركة نهر الدوير

سنة ٣٧١ هـ

قائد المعركة من المسلمين: المنصور بن أبي عامر قائد جيوش الأندلس.

قائدها من النصارى: تحالف النصارى: رودمير ملك ليون وغرسيه ملك قشتالة وسانشو ملك نافار.

أسبابها: أن المنصور بن أبي عامر شن حروبًا على النصارى بلا هوادة فكسر شوكتهم وقطع أطماعهم فقد كانوا قبل توليه قيادة الجيوش ومنصب الحاجب يستعدون للقضاء على الدولة الإسلامية في قرطبة، حيث شنوا هجمات في مناطق الشمال ولاقوا نجاحًا كبيرًا في حروبهم، مما دفعهم للتوغل جنوبًا ناشرين الخوف والهلع في البلدان الإسلامية المجاورة لهم. وهنا خرج لهم المنصور بجيوشه فأدبهم، مما دفعهم للتجمع والتحالف للإيقاع بالمنصور، فحشد المنصور جيشًا ضخمًا وتقدم باتجاههم حتى لاقاهم على نهر الدوير قرب بلدة روطة، ودارت رحى معركة حامية تم فيها سحق التحالف وفرار الجيوش المتحالفة، وكان من نتيجة هذه المعركة فتح مدينة «سنت منكش» المهمة عنوة، وتعد هذه الغزوة بالنسبة لغزوات المنصور السادسة، فقد غزا خلال مدة حكمه خمسين غزوة كانت كلها مظفرة لم تكسر له فيها راية ولا نكب في بعث، مما أدخل الخوف والهيبة في قلوب أعدائه، وتعد الغزوة رقم (٤٩) أيضًا من الغزوات المهمة التي قضى فيها على تحالف مماثل وكانت عند جبل جربيرة في ٢٥ شعبان سنة ٣٩٠ هـ.

* * *

(٥٠)
معركة مالطة
في ذي القعدة سنة ٣٧١ هـ

سببها: قدوم حملة كبيرة من بلاد الروم إلى صقلية يقودها ملكهم «بردويل»، فحصر قلعة مالطة وملكها، فخرج أمير صقلية أبو القاسم من مقره يريد فك الحصار عن مالطة ومنازلة بردويل، ولما وصل قريبًا من القلعة وجدها قد سقطت ووجد مع بردويل جيشًا كبيراً فخاف من منازلته وطلب من جنده الانسحاب ـ وهذا التردد أول الفشل ـ وفي أثناء انسحابه كان أسطول الفرنج يتابعه من البحر فأرسلوا إلى بردويل يخبرونه بجبن المسلمين عن اللقاء، فتبعهم بجيشه مخففًا أثقاله، حتى أدركهم ودارت رحى معركة حامية وانفض عن أبي القاسم جمع غفير من جيشه فاختل نظام جيش المسلمين وأصيب أبو القاسم واستشهد في المعركة، ثم إن المنهزمين من المسلمين ندموا على فعلتهم وعادوا مصممين على القتال أو الموت، وحينئذ اشتد القتال وحمي الوطيس وبدت بوادر الهزيمة على جيش الروم فقد قتل منهم أكثر من أربعة آلاف ووقع في الأسر كبارهم وهنا هرب ملك الروم وتبعه المسلمون فغاصت فرسه في الوحل فنزل يهودي من خاصته وقدم له فرسه فنجا عليه وقتل اليهودى، وكان أبو القاسم رحمه الله حسن السيرة في الرعية كثير الإحسان عظيم الصدقة لم يخلف ديناراً ولا عقاراً وكانت مدة ولايته على صقلية أكثر من اثنتي عشرة سنة.

❋ ❋ ❋

(٥١)
وقعة أبي شور «بيشاور»
في المحرم ٣٩٢ هـ

قائد المسلمين: السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي.

قائد الهنود: الملك جيبال.

بعد أن وطد محمود الغزنوي أركان سلطته وهزم المنشقين، نذر نفسه للجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام في بلاد الهند المجاورة، فقصد مدينة أبي شور ـ بيشاور اليوم ـ فعلم به ملك الهند وحشد جموعًا عظيمة من الهنود مع أعداد من الفيلة المدربة لخوض المعارك، واختار محمود خمسة عشر ألفًا من خيرة جنده مع المتطوعين للجهاد في سبيل الله وبرز لجيبال، واحتدم القتال وصبر الفريقان، فلما انتصف النهار ظهر المسلمون على عدوهم ورجحت كفتهم ودبت الهزيمة في جيش الكفر وكثر الجراح والقتلى فيهم، ثم لاذوا بالفرار وأسر ملكهم جيبال مع كبار قادته وأهله وعشيرته. وغنم المسلمون غنائم عظيمة من المال والعتاد والجواهر وغنموا خمسمائة ألف رأس من العبيد، وفتحت هذه المعركة أمام السلطان محمود البلاد أمام تقدمه وغزواته، وبعد مدة أطلق سراح الملك جيبال لقاء مبلغ كبير من المال، غير أن الهنود لم يولوه لأن من عادتهم أن لا يولوا عليهم من أُسر فما كان منه إلا أن انتحر حرقًا.

* * *

(٥٢)
معركة سومنات
١٥ ذو القعدة ٤١٦ هـ

قائدها من المسلمين السلطان محمود الغزنوي، وعدد جيشه يفوق الثلاثين ألفًا، وسومنات اسم صنم للهنود يعد من أعظم أصنامهم يحجون إليه كل ليلة خسوف، فيجتمع عليه ما يزيد على مائة ألف إنسان، وحوله زعموا أن أرواح الموتى تجتمع عنده ليوزعها من جديد على مولودين جدد، وهذا يدل على عقيدة التناسخ، كما يزعمون أن البحر في مده وجزره يعبد هذا الصنم... ووطد السلطان محمود نفسه للوصول إلى هذا الصنم للقضاء على هذه الخرافة ونزع العامل الروحي من الهنود ليتعرفوا بعدها على فساد اعتقادهم فيتوجهوا للإسلام، وكانت المسافة إليه طويلة والرحلة شاقة، وهناك منقطع من الأرض للوصول إليه، حيث القفر وقلة الماء ومع ذلك قصده وحمل الماء على ظهر عشرين ألف جمل، فلما قطع المسافة بدت له قلاع شحنت بالمقاتلين وعندها آبار قد غورها الهنودكي لا يستفيد منها، لكنه فتح القلاع وتوجه إلى «أنهلوارة» فاستولى عليها بعد فرار حاكمها «بهيم» وقصد سومنات بعد أن استولى على قلاع كثيرة وهدم مافيها من أصنام وبدت له مفازة أخرى مقفرة وقد تحصن فيها عشرون ألف مقاتل فقاتلهم وألحق بهم الهزيمة ثم وصل إلى «دبولوارة» فقاتله أهلها فهزمهم واستولى عليها ثم وصل إلى سومنات في منتصف ذي القعدة وكان خروجه في العاشر من شعبان فنظر إلى قلعة الصنم فإذا هي حصن حصين قد بُني على البحر وأهله على الأسوار ينظرون إلى المسلمين، ثم زحف إليهم يوم الجمعة واشتبك الفريقان ورأى



الهنود من المسلمين قتالاً وصبراً لم يعهدوا مثيلاً له، وصعد المسلمون الأسوار ونادوا بالتكبير وحمي وطيس المعركة، ودارت المعارك في ساحات الصنم فكان الهنود يقاتلون فوجًا فوجًا بعد أن يتمسحوا بصنمهم، واحتدمت المعارك على باب الصنم حتى تراكمت الجثث وكاد الفناء يستوعبهم فلما شاهدوا القتل ويئسوا من نصر سومنات لهم، ركبوا البحر هربًا، وكان عدد القتلى في هذه المعركة من الهنود خمسين ألفًا.

وهذه المنطقة تقع على بحر العرب جهة الهند ما بين كراتشي اليوم وبومباي.

* * *

(٥٣)
معركة ملاذكرد
٤٦٣هـ

قائد المسلمين: ألب أرسلان وعدد جيشه ١٥٠٠٠ مقاتل.

قائد الروم: أرمانوس وعدد جيشه ٢٠٠٠٠٠ مقاتل.

قصد أرمانوس كعادته بلاد المسلمين في الجزيرة وثغور الشام لتخريبها واحتلال ما يمكن احتلاله ومعه جيش جرار يفوق مائتي ألف مقاتل، فبلغ الخبر ألب أرسلان ملك السلاجقة، وكان في أذربيجان قريبًا من ملاذكرد، فلم يتمكن من جمع كامل جيشه، فانطلق نحو العدو بخمسة عشر ألف مقاتل واقترب من مقدمة جيش العدو، وكانوا من الروس وعددهم عشرة آلاف مقاتل، فقاتلهم وهزمهم وأسر قائدهم ثم تقدم حتى تقارب الجيشان، ورأى ألب أرسلان ضخامة جيش العدو فأرسل إلى أرمانوس يطلب المهادنة، فرد أرمانوس لا هدنة إلا «بالري» وهي عاصمة ألب أرسلان تقع في إيران اليوم ـ وهنا عزم السلطان على القتال، وبث الفقهاء فيه روح الحماس لخوض غمار هذه المعركة وكسر شوكة أرمانوس، وأن هذا جهاد في سبيل الله، ونصحوه أن يبدأ المعركة يوم الجمعة بعد الزوال، فهذه ساعة يكون فيها الخطباء على المنابر يدعون للمسلمين بالنصر على عدوهم، ثم إن السلطان نزل فصلى بالناس صلاة مودع وبكى وتضرع إلى الله أن ينصره، وقال لجنده: من أراد القتال بصبر وشجاعة فليبق، ومن أراد الانصراف فلينصرف، ثم لبس البياض وتحنط استعدادًا للشهادة وقال: إن قتلت فهذه أكفاني، وأخذ السيف والدبوس وكبر وكبر معه المسلمون، والتقى الجمعان وتصاعد الغبار، وثبت

المسلمون مع سلطانهم وضربوا بالسيوف حتى كلت سواعدهم، فأين لهم أن يزيلوا جيشًا يفوقهم أربعة عشر ضعفًا؟ لكن الله سبحانه وتعالى وعد المجاهدين المخلصين بالنصر، فما هي إلا ساعات حتى لاحت بوادر النصر وهزيمة الأعداء وانكشف الغبار عن تلال من قتلى الروم، كما وقع أرمانوس في الأسر، أسره غلام صغير، ومن العجيب أن «نظام الملك» وزير ألب كان قد رد هذا الغلام لصغر سنه، لكن سيده أثنى عليه فقال «نظام الملك» مستهزئًا: عسى أن يأتينا بملك الروم أسيراً فكان ذلك بإرادة الله، ووقف الملك المأسور ذليلاً أمام ألب أرسلان فقرعه بالمقرعة وقال له: ألم أطلب منك الهدنة فما قبلت؟

فقال: دعك من التوبيخ وافعل بي ماتشاء.

قال ألب: ماكنت ستفعل بي لو أسرتنى؟

قال أرمانوس: كل قبيح، فقال ألب: وما تظن أني سأفعل بك الآن؟

قال: واحدة من ثلاث إما قتلي وإما التشهير بي في بلاد المسلمين، والثالثة بعيدة وهي العفو واصطناعي وقبول الفداء، قال ألب: ما عزمت على غير هذا، ثم فدى نفسه بمليون ونصف دينار وألا يتعرض لبلاد المسلمين، وأن يطلق كل أسير مسلم عنده، وفي بلاده خلعوه ولم يطيعوه، فلبس الصوْف وأظهر الزهد.

قصة طريفة عن ألب أرسلان.. للعبرة

بلغ ألب أرسلان شأواً عظيمًا في الملك وخضعت له بلاد واسعة، وقد اجتمع له جيش فاق سبعمائة ألف مقاتل، وجلس على سرير مرتفع يومًا ينظر إلى هذا الجيش، ثم قال في نفسه: من يستطيع أن يقهرني الآن؟

وفي هذه الأثناء قُدّم أمامه أحد المتمردين من المسلمين الذين شقوا عليه عصا الطاعة، فوبخه ألب أرسلان على فعاله وغدره، لكن المتمرد شتمه فقال ألب إلي بقوسي، وكان راميًا لا يخطىء، وقال: حلوا وثاقه ثم رماه بسهم فأخطأه فقام، هذا المتمرد واسمه يوسف، فأخرج من وسطه سكينًا كان قد أخفاها وهجم على ألب أرسلان وقذف بنفسه فوقه ثم طعنه، وهجم حرس السلطان فأمسكوا بيوسف

وقتلوه بعد أن أحدث في بعضهم جراحات بليغة، وبعد أيام توفي السلطان رحمه الله، وقال قبل موته: «ما من وجه قصدته أو عدو أردته إلا استعنت عليه بالله، ولما كان أمس صعدت على تل فارتجت الأرض تحتي من عظم الجيش وكثرة العسكر فقلت في نفسي: أنا ملك الدنيا وما يقدر أحد علي، فعجّزني الله بأضعف خلقه وأنا أستغفر الله وأستقيله في ذلك الخاطر».

❋ ❋ ❋

(٥٤)
معركة الزلاقة في العشر الأول من رمضان ٤٧٩ هـ

تعد من المعارك الحاسمة في التاريخ، وكان قائد جيوش المسلمين: يوسف بن تاشفين، سلطان المرابطين في المغرب، فقد وصل حال المسلمين في الأندلس إلى الحضيض، من حيث الفرقة والخلاف والاقتتال والاستعانة بعضهم على بعض بالإسبان، فطمع بهم أعداؤهم وقرروا استئصال الجميع، فكان قائد جيش الأسبان الأذفونش الذي احتل من قبل طليطلة فهابه المسلمون حتى دفع له بعضهم الجزية ومنهم الملك المعتمد بن عباد.

ومن أسبابها أن ابن عباد كان يرسل الجزية السنوية إلى الأذفونش، فرفضها هذه المرة وطلب من المعتمد بن عباد تسليم عدد من القلاع والحصون حول قرطبة وأرسل الأذفونش رسوله بذلك ومعه خمسمائة جندي، فغضب ابن عباد وأمسك الرسول وصفعه حتى خرجت عيناه، ووثب جند المسلمين على جنود الأذقونش وقتلوهم، ونجا ثلاثة من النصارى فعادوا إلى الأذفونشي وأخبروه بما حصل لهم، فبيت الحرب وبدأ يجمع الجيوش وآلات الحصار ليفتح قرطبة، وعلم المعتمد بما يعده الأذفونش فأرسل إلى ملك المغرب يوسف بن تاشفين يستنجده، فجمع جيشه وعبر مضيق جبل طارق وأتى على رأس جيش لينجد إخوانه في الأندلس، واجتمع للأذفونش جيش ضخم يفوق الخمسين ألف جندي، وتقدم نحو قرطبة ولما تقابل الجيشان كان جيش المعتمد في المقدمة، وكمن على بعد أميال جيش يوسف بن تاشفين، وأرسل الأذفونش إلى المعتمد: متى تحب أن يكون القتال؟



فأرسل له المعتمد؛ غدًا يوم الجمعة، ثم يأتي الأحد فيكون اللقاء يوم الاثنين فقد وصلنا متعبين، لكن الأذفونش شن هجومه يوم الجمعة غدرًا فوقع القتال وصبر الفريقان وصبر المسلمون مع المعتمد فجيش العدو يفوقهم بكثير وكادت الصفوف تميد، فأرسل المعتمد إلى يوسف يخبره بالاشتباك فخرج من كمينه خلف الأعداء ودخل خيامهم وقتل من فيها، فلما رأى الإفرنج خيامهم تهوى وتنهب اضطربوا واختلت صفوفهم فأخذتهم السيوف من كل جانب ولم يفلت منهم إلا القليل، فقد هرب الأذفونش ونجا معه ثلاثمائة مقاتل فقط، ولاقى الجميع حتوفهم وامتلأت أرض المعركة من دمائهم، حتى زلقت الأرجل فيها لذلك سميت معركة الزلاقة ويقال: إن المكان كان يحمل هذا الاسم.

* * *





(٥٥)
معركة ملطية
في ذي القعدة سنة ٤٩٣ هـ

سببها أن حاكم ملطية كاتب الملك الفرنجي بيمند ليملكه المدينة فورد بيمند في خمسة آلاف مقاتل فلقيهم كمشتكين بن الدانشمند طايلو فهزمهم وأسر بيمند، فقدم جيش جرار يقوده سبعة من كبار قادة الإفرنج ومعهم ثلاثمائة ألف مقاتل وتقدموا لاستنقاذ بيمند، فحصروا قلعة أنكورية فملكوها، وقتلوا من فيها من المسلمين ثم حاصروا قلعة لإسماعيل بن الدانشمد أخو كمشتكين، وبينما هم يحاصرونها كان كمشتكين قد جمع لهم جيشًا كبيراً فهاجمهم، ودارت رحى معركة رهيبة انتصر فيها كمشتكين وأفنى جيش الإفرنج حتى لم ينج منهم سوى ثلاثة آلاف مثخنين بالجراح، ثم تقدم كمشتكين نحو ملطية فملكها وملك سيواس ثم هزم عسكر انطاكية.

كانت هذه المعارك بعد أقل من سنتين على غزو الصليبيين لبلاد الشام واحتلالهم للقدس، فإن دلت على شيء فإنما تدل على قوة المسلمين إذا تحدوا وأن احتلال الصليبيين لعدد من مدن بلاد الشام كان على حساب الفرقة بين المسلمين، فهذا هو حاكم صغير يسيطر على جزء يسير من بلاد المسلمين في الوسط الشرقي من تركية الحالية يوقع الهزائم بجيش صليبي ضخم، فما بالنا لو اجتمعت الأمة على قتالهم؟ فإن أحدًا لن يجسر على الاقتراب من ديار المسلمين.

* * *



(٥٦)
معركة حران
سنة ٤٩٧ هـ

قائد المسلمين: معين الدولة سقمان ومعه ٧٠٠٠ مقاتل يساعده شمس الدولة جكرمش ومعه ٣٠٠٠ مقاتل.

قائد الإفرنج: بردويل ومعه تنكري وجيشهما يزيد على عشرين ألف مقاتل.

سبب المعركة أن الإفرنج قصدوا مدينة حران للاستيلاء عليها وكان بين معين الدولة وشمس الدولة حرب، وقد حشدا جيشيهما للاقتتال كعادة المسلمين في ذلك الوقت ـ كل جار يغير على جاره ـ فبلغهما خبر قدوم الإفرنج، فقال معين الدولة لماذا لا نقاتل أعداء الله ويكون هذا الجمع في سبيل الله؟ فاتفقا على ذلك وتعاهدا وانطلقا حتى وصلا إلى نهر البليخ قرب حران فقاتلوا الإفرنج وأظهروا الهرب ثم عطفوا عليهم فكان النصر المبين على الإفرنج وكان للإفرنج كمائن فلما رأوا هزيمة جيشهم هربوا أيضًا، فتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ووقع بردويل في الأسر، أسره جماعة سقمان ثم اختطفه جماعة جكرمش ليفادوا به بالأموال الباهظة، وعلم سقمان بذلك فغضب وركب جماعته لحرب جكرمش فقال سقمان: «لايقوم فرح المسلمين بهذه الغزاة بغمهم باختلافنا ولا أوثر شفاء غيظي بشماتته الأعداء بالمسلمين» ثم انصرف، وهذا منتهى العقل والرشد. قتل من الإفرنج في هذه الموقعة ١٢٠٠٠ مقاتل ثم إن سقمان ألبس جنوده لباس الإفرنج ومروا على الحصون التابعة للإفرنج فظنوا أنهم قد انتصروا على المسلمين فكانوا يفتحون لهم القلاع فيملكها المسلمون.

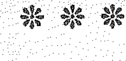


(٥٧)
معركة طبرية
١٣ المحرم سنة ٥٠٧ هـ

قائد جيش المسلمين: مودود ومعه طغتكين حاكم دمشق.

قائدها من الإفرنج: بغدوين ملك القدس ومعه جوسلين

سببها: أن الإفرنج أكثروا الغارات على دمشق وضواحيها فخربوا ما حولها وتأذت الناحية الاقتصادية فيها، فاستعان حاكم دمشق طغتكين بحاكم الموصل مودود، فلبى النداء وأقبل بجيشه، وتلقاه طغتكين واتفقا على الإغارة على الصليبيين، وانطلقا من الأردن، فجمع الصليبيون جيشًا بقيادة ملكهم بغدوين كما شارك عدد من أمرائهم، وانطلقوا من بلدة طبرية على البحيرة المعروفة باسمها والتقى الطرفان في الثالث عشر من المحرم ودارت معركة حامية فانهزم الإفرنج وكثر القتل فيهم، كما استسلم قسم كبير منهم، حتى ملكهمّ بغدوين فإنه وقع في الأسر وتنكر كي لايعرفه المسلمون، فأخذ منه سلاحه وأطلق دون أن يعرفه أحد، كما غرق قسم كبير من جيش الإفرنج في البحيرة وفي نهر الأردن، وبعد هذه الهزيمة المنكرة وصلهم مدد من أنطاكية وطرابلس فجمعوا جموعهم وعادوا للحرب فأحاط بهم المسلمون ورموهم بالنشاب ـ ومن المعروف عن المسلمين في تلك الفترة شدة الرمي ـ واستمر الحال قريبًا من الشهر وهم محصورون في تل لا يجرؤون على النزول، ثم انسحب المسلمون يغيرون على المدن التي احتلها الصليبيون فيقتلون ويأسرون فيما بين عكا إلى القدس ثم انسحبوا إلى دمشق.





(٥٨)
معركة تل عفرين
سنة ٥١٣ هـ

قائد جيش المسلمين: حاكم حلب إيلغازي، ومن الفرنج سيرجال حاكم انطاكية.

سببها كثرة غارات الصليبيين على حلب وإفساد الزروع والمحاصيل فأرسل أهل حلب إلى بغداد يطلبون النجدة فلم يغاثوا.. ثم إن الأمير إيلغازي كان بماردين يجمع المتطوعة والعساكر فاجتمع له عشرون ألفًا مع عدد من القادة المشهورين وسار بهم لقتال الإفرنج، فعلم الصليبيون بهم فجمعوا ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل ونزلوا قرب تل عفرين بين الجبال، وتقدم المسلمون نحوهم ودخلوا عليهم الشعاب، ودارت معركة حامية، وأحيط بالفرنج من كل جانب، وسدوا عليهم شعاب النجاة، فقتلوا عن آخرهم إلا قلة منهم تسلقت الجبال خفافًا ولا ذوا بالفرار وأُسر سبعون من قادتهم وفرسانهم، فحملوا إلى حلب أما «سيرجال» فقد وجد مقتولاً في المعركة، وكان من نتيجة هذه المعركة أن قويت حلب لمواجهتهم وفتحت عدة حصون صليبية، منها حصن الأثارب وزردنا، وبعد وفاة إيلغازي سنة ٥١٦ هـ ضعف حال حلب ففي سنة ٥١٧ هـ استولى الإفرنج على حصن الأثارب فأعاده عماد الدين زنكي بعد معركة عنيفة سنة ٥٢٤ هـ كما سيأتي:





(٥٩)
معركة حصن الأثارب
سنة ٥٢٤ هـ

قائد جيش المسلمين: عماد الدين زنكي.

قائد جيش الصليبيين: حاكم أنطاكية.

سببه أن الحصن أصبح قاعدة للصليبيين يغيرون منه على حلب ويهددون أمنها وبالتالي فرض الصليبيون على حلب مقاسمتهم في نصف محاصيلهم الزراعية، فلما ملك عماد الدين حلب وأصبحت تابعة له وكان عنده حب الجهاد والأنفة من أن يرضى بشروط الذل هذه، أعد جيشه وقصد استرجاع حصن الأثارب، فعلم الصليبيون بذلك وجمعوا له جموعًا ضخمة لنجدة الحصن، فتوافدوا براجلهم وفارسهم، فلما رأى المسلمون كثرتهم أشاروا على عماد الدين بالانسحاب وعدم اللقاء، فقال لهم: إذا رأونا انسحبنا طمعوا فينا وساروا في إثرنا وخربوا بلادنا فلابد من اللقاء، ثم إنه حمسهم وشجعهم على الصبر في القتال والتحمل في سبيل الله وكانت المعركة، فصبر المسلمون وأنزل الله نصره عليهم وانهزم الإفرنج شر هزيمة، وأسر الكثير منهم وقتل منهم خلق كثير، ثم قال عماد الدين: هذا أول مصاف لنا مع الإفرنج فلنذيقنهم بأسنا حتى يبقى الرعب مسيطرًا عليهم زمنًا، فشدد في قتلهم ومتابعتهم حتى أصبح اسمه يثير الرعب بينهم قال ابن الأثير: مررت سنة ٥٨٤ من مكان المعركة وإن كثيرًا من العظام باقٍ إلى ذلك الوقت، ثم فتح عماد الدين حصن الأثارب فغنم ما فيه وقتل المقاتلين ثم سواه بالأرض.





(٦٠)
معركة أفراغة
سنة ٥٢٩ هـ

سببها: أن ابن رودمير ملك الإفرنج في الأندلس كان كثير التعرض لمدن المسلمين، فقصد هذه المرة مدينة أفراغة الواقعة في شرق الأندلس، فندب إليها أمير الأندلس عددًا من قادته لينجدوها ويوصلوا إليها المؤن وهم: الزبير بن عمرو ومعه ألفا فارس إضافة إلى المؤن المحملة كما أرسل إلى أمير بلنسية[١] لمساندتهم فخرج في خمسمائة فارس وكذلك إلى حاكم لاردة[٢] فخرج في مائتي فارس فأصبح عدة الجميع ٢٧٠٠ مقاتل وكان ابن رودمير في اثني عشر ألفًا، فلما وصلت طليعة المسلمين بقيادة عبد الله بن عياض، قال ابن رودمير لأصحابه: اخرجوا وخذوا هذه الهدية التي أرسلها المسلمون إليكم، وأدركه العجب فأنفذ قطعة كبيرة من جيشه فلما اقتربوا من المسلمين خرج إليهم ابن عياض وأحدث فيهم قتلاً ذريعًا فردهم إلى جيشهم فتقدم ابن رودمير بنفسه فحمل بن عياض وابن غانية (٧٠٠ فارس) عليهم واستحر فيهم القتل ثم انضم الزبير بن عمرو في (٢٠٠٠) فارس والتحم مع الأعداء وثقلت عليهم الوطأة رغم تفوقهم في العدد ثم خرج أهل مدينة أفراغة رجالاً ونساء إلى مخيم النصارى فقتلوا الحراس وحملوا جميع المتاع إلى مدينتهم ودبت الفوضى في صفوف الأعداء، فهربوا بعد أن قتل معظمهم وهرب ابن رودمير في قلة من جيشه ثم مات بعد عشرين يومًا همًا وحزنًا، وكان من أشد ملوك النصارى على المسلمين.

---

(١) يحيى بن غانية.
(٢) عبد الله بن عياض، وكان من الشجعان المعدودين.



(٦١)
معركة قلعة بعرين
سنة ٥٣١ هـ شوال

سببها: أن عماد الدين زنكي عمل على توسيع ملكه في بلاد الشام فتوجه إلى قلعة بعرين وهي قريبة من مدينة حماة وتعد من أمنع معاقل الإفرنج ورأس حربه صليبية متقدمة في الداخل، فلما نزل عليها عماد الدين قاتل جيشها وزحف إليها، فتسامع الإفرنج وهبوا لنجدتها، فارسهم وراجلهم وأميرهم وقادتهم وعملوا على زحزحته فلم يبارحها بل صبر لهم والتحموا معه فقاتلهم أشد قتال رأه الناس وصبر الفريقان ثم انجلت المعركة عن هزيمة الفرنج فأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب، ثم احتمى الفارون بحصن بعرين فحصرهم فيه عماد الدين ومنع عنهم كل شيء حتى الأخبار لشدة ضبط الطرق والمنافذ فانقطعوا عن العالم، وخرج الرهبان والقساوسة في بلاد الإفرنج يستنفرون ملوكهم لنصرة المحاصرين في بعرين وأن سقوطها بيد عماد الدين سيفتح له الطريق لبقية البلدان التي يحتلها الإفرنج في أسرع وقت. وبالتالي استرداد بيت المقدس، وهكذا ألهبوا الحشود في بلدانهم ضد عماد الدين، أما عماد الدين فقد جد في الحصار وإنشاب القتال فصبر المحاصرون حتى أكلوا دوابهم ثم أذعنوا بالتسليم على شرط تركهم أن يعودوا لبلادهم سالمين فلم يجبهم إلى ذلك ثم فرض عليهم مالاً مع تسليم الحصن فقبلوا وغادروا بعرين وفي مدة حصارهم فتح ما جاورها من حصون مثل المعرة وكفر طاب حتى أصبحت بلدان المسلمين من حلب إلى دمشق سالكة لايعوقها قلاع للإفرنج.

(٦٢)
معركة المهدية
جمادى الآخرة ٥٥٤ هـ

سببها: أن المهدية كانت قد سقطت بأيدي ملك صقلية وأصبحت لهم رأس جسر للعدوان في البر التونسي، وأرادوا أن ينتقموا من المسلمين لما كان منهم في صقلية، فعاثوا فسادًا في تلك المنطقة إلى أن ذهب وفد إلى مراكش واستنجدوا بأميرها عبد المؤمن بن علي، فوعدهم بالنصرة ولو بعد حين ثم أمر بالاستعداد وتجهيز الجيش وتوفير المؤن فاجتمع له مائة ألف مقاتل ومثلهم من الأتباع والمتطوعة، فضم تونس ثم تقدم إلى المهدية وهي مدينة حصينة بناها المسلمون لكنها سقطت بأيدي الإفرنج سنة ٥٤٣ هـ فهي مبنية على شبه جزيرة ممتدة في البحر، وكان فيها عدد من قادة الإفرنج وأمرائهم وشجعانهم، فيخرجون ليلاً وينالون من عسكر المسلمين، فأمر عبد المؤمن أن يُبنى سور يمنعهم من الخروج، وركب عبد المؤمن في سفينة وطاف حولها ومعه أميرها السابق الحسن بن علي، فهاله ما رأى من حصانتها وعلم أنها لاتفتح برًا ولا بحرًا فقال للحسن: كيف نزلت عن مثل هذا الحصن فقال: لقلة من يوثق به وعدم القوت وحكم القدر، قال: صدقت ثم عاد وقال: لاينفع في فتحها إلا المطاولة والحصار، وقدم الإفرنج في مائة وخمسين سفينة لفك الحصار، فتصدى لهم أسطول المسلمين وهزمهم وأسر سبع سفن وييئس المحاصرون من النجدة بعد هزيمة أسطولهم واستمر الحصار ستة شهور ثم طلب الإفرنج الأمان والتسليم فقبل منهم وأعطاهم سفنًا ليغادروا المهدية وكان الوقت شتاء فغرق معظمهم قبل الوصول إلى صقلية.

(٦٣)

معركة حارم

رمضان ٥٥٩ هـ

سببها: أن الإفرنج قصدوا مصر لاحتلالها وفيها نائب نور الدين أسد الدين شيركوه وجيشه قليل إضافة إلى عدم تعاون حكام مصر في صد الإفرنج، لذلك رأى نور الدين أن يقوم بحملة كبيرة يرغم فيها الإفرنج ويثنيهم عن غزو مصر. ففتح جبهة في شمال بلاد الشام وقصد حصن حارم بعد أن استعد أتم استعداد، وأرسل في طلب نجدات من الموصل والجزيرة وماردين، كما جمع الإفرنج كل إمكاناتهم ليزجوا بها في المعركة، وحضر كبراؤهم أمثال بيمند صاحب إنطاكية وصاحب طرابلس وابن جوسلين والدوك وهو مقدم كبير الروم، والتقى الجمعان قرب حارم وهجم الفرنج على ميمنة المسلمين فانهزمت الميمنة، وأبعدت وتبعها فرسان الإفرنج طمعًا في إفنائهم. وهنا أطبق القلب والميسرة على مشاة الإفرنج فأبادوهم ولما عدا الفرسان الذين فطنوا للحيلة وجدوا أن مشابتهم قد أبيدوا فأسقط في أيديهم وقاتلوا قتال يائس يحاول الإنسحاب وأطبق عليهم المسلمون من كل جانب فأبادوهم وسقط في الأسر الكثير، منهم: صاحب انطاكية وطرابلس ومقدم الروم وابن جوسلين وقد زاد عدد القتلى على عشرة آلاف، وفتحت حارم وخرجت من قبضة الصليبيين للأبد.



(٦٤)

معركة الإسكندرية

٥٧٠ هـ

تعد هذه المعركة بمثابة حرب شعبية ضد الغازي الإفرنجي.

وسببها أن بقايا حكام مصر من الفاطميين وأعوانهم المتنفعين كانوا قد راسلوا الصليبيين في الشام وفي صقلية لِيَقدُموا إليهم، كي يثوروا من الداخل والخارج لإخراج صلاح الدين من مصر بعد أن حكمها وأزال منها الحكم الفاطمي، فسارع الإفرنج خدمة لمصالحهم ولكي لا تجتمع مصر والشام على حرب الصليبيين في فلسطين، فتقدم جيش صقلية بحرًا بأسطول ضخم فيه مائتا سفينة لحمل الرجال وست وثلاثون لحمل الخيل وست أخرى لحمل آلة الحرب وأربعون لحمل الزاد وكان عدة من فيها من الرجال خمسين ألفًا، ومن الخيل وفرسانها ألف وخمسمائة، يقود هذه الحملة ابن عم ملك صقلية، فوصلوها في ٢٦ من ذي الحجة ٥٦٩ هـ، فخرج أهل الاسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول، فأمرهم الوالي بملازمة الأسوار، ونزل جيش صقلية إلى البر وتقدموا نحو المدينة ونصبوا الدبابات والمجانيق، وقاتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل الإسكندرية، ولم يكن عندهم من العسكر النظامى إلا القليل، ومع ذلك رأى المعتدون من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم، وتوقف القتال آخر النهار. وأرسل الوالي يطلب المدد ويخبر صلاح الدين، وفي اليوم التالي جدد الغزاة نشاطهم وكثفوا هجومهم وزحفوا بالدبابات حتى اقتربوا من السور ووصل في هذا اليوم مدد من الجهات القريبة من الإسكندرية فقويت به نفوس المسلمين وصبروا

للقتال، وتوقف القتال مساء، وفي اليوم الثالث فتح المسلمون الباب وخرجوا على الإفرنج من كل جانب فارتاع الفرنج واشتد القتال وأحرقت الدبابات وكثر القتل في الإفرنج، واستمر القتال حتى آخر النهار، ثم عاد أهل الإسكندرية إلى بلدهم وأغلقوا الأبواب وقد استبشروا بالنصر وباتوا يعدون العدة للزحف النهائي ووصل رسول صلاح الدين ليخبرهم أنه قادم بجيشه إليهم ويحثهم على الثبات، فلما سمع المسلمون الخبر اشتد ساعدهم وعاودوا القتال ليلاً ووصلوا إلى خيام الإفرنج فظن الإفرنج أن نجدات إسلامية بقيادة صلاح الدين قد وصلت، فاختل نظامهم وفروا باتجاه سفنهم تاركين أعداداً كبيرة من القتلى والأسرى كما غرق قسم منهم في البحر ثم تبعهم سباحو الإسكندرية ونقبوا لهم بعض السفن فغرقت، واحتمى ثلاثمائة فارس بتل فقاتلهم المسلمون حتى أضحى النهار فغلبوهم وصاروا بين قتيل وأسير. فوصل صلاح الدين ليشهد هذا النصر الشعبي الباهر وماذاك إلا لمحبتهم لصلاح الدين وللحرية التي نالوها بعد كبت الغلو الفاطمي.

❋ ❋ ❋

(٦٥)
معركة حماة
سنة ٥٧٣ هـ جمادى الأولى

سببها: وصول قائد[١] صليبي كبير إلى ساحل الشام ومعه جيش ضخم وكان يبحث عن مدينة يحتلها ليغيظ صلاح الدين، كما أن حملة صلاح الدين على الرملة من مصر فشلت وعاد إلى مصر، وأصبحت بلاد الشام خالية من جيش كبير يمنع مدنها، لهذا قصد هذا الجيش مع من ساعده من الصليبيين بالشام مدينة حماة وكان واليها خال صلاح الدين شهاب الدين محمود وهو من الشجعان المعدودين إلا أنه كان مريضًا مرض الموت، فأحاط الصليبيون بالمدينة وجرت معارك شديدة على الأسوار وجند حماة النظامى يدافعون ببسالة إلا أنهم قلة أمام الهجوم الصليبي، مما أدى إلى اختراقهم لبعض الأسوار ودخولهم طرف البلد الجنوبي وكادت تؤخذ حماة عنوة لولا أن هب رجالها يساندون القوات النظامية ويحامون عن النفس والأهل فدارت رحى حرب طاحنة حتى صدوا الإفرنج من تلك الناحية وأخرجوهم إلى ظاهر المدينة، ثم تابعوهم خارج المدينة يقتلون منهم ويأسرون وفر الإفرنج خائبين، وقد دامت تلك المعارك أربعة أيام، وبعد رحيلهم توفي شهاب الدين محمود. وفي سنة ٥٧٤ في ربيع الأول عاد الإفرنج لغزو حماة فزحفوا بفارسهم وراجلهم وأسروا ونهبوا من قراها، فخرج لهم جيش حماة وهو قليل العدد لكنه توكل على الله، فالتقوا معهم فهزموهم بإذن الله فأسروا وقتلوا الكثير وأعادوا جميع الأسرى المسلمين ومانهبه الإفرنج، وكان صلاح الدين بحمص فحملت إليه الرؤوس والأسرى فسر بذلك.

---

(١) ذكره ابن الأثير باسم كند كبير، من أكبر طواغيت الإفرنج، لعل كند تعني ملك.



(٦٦)
معركة حصن الأحزان
سنة ٥٧٥ هـ ربيع الأول

سببها: أن الفرنج بنوا حصنًا منيعًا قرب بانياس الداخل وهي قريبة من روافد نهر الأردن شمال بحيرة طبريا، وهذا الحصن المنيع يهدد المنطقة، لذا قرر صلاح الدين الأيوبي الاستيلاء عليه، فحشد جيشًا وسار نحو الحصن، كما بث الغارات ضد الصليبيين ليشغلهم عن نجدته، فحاصر الحصن وبدأ معه قتال اختبار، ثم أرسل في جلب المؤن والأخشاب لصنع أدوات الحصار ولما علم الإفرنج بوجهة صلاح الدين جمعوا فارسهم وراجلهم وقادتهم بقيادة ملك القدس، واتجهوا للقاء صلاح الدين فاصطدمت مقدمتهم بعسكر المؤونة ونشب القتال وأُبلغ صلاح الدين فسار بعسكره مجدًا حتى وافاهم وهم في القتال، وقاتل الإفرنج وأظهر الجميع صمودًا وصبرًا، وحمل الفرنج على المسلمين عدة حملات كادت تزيلهم عن مواقفهم، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، وهزم أعداء الدين وقتل منهم جمع غفير ونجا ملكهم فريدًا شريدًا ووقع في الأسر ابن بيرزان حاكم الرملة ونابلس وهو يلي الملك مرتبة وأسر صاحب جبيل وصاحب طبريا ومقدم الداوية ومقدم الإسبتارية وصاحب جنين، وبعد هذه الهزيمة المنكرة تفرغ صلاح الدين لحصار قلعة الأحزان فأقام المجانيق والمتاريس ثم هاجمها، وتمكن الجند من أخذ الباشورة أسفل السور فقاموا بنقبه وأشعلوا تحته النار ليسقط لكنه كان قويًا وقد بلغ عرضه أكثر من تسعة أذرع، ثم أطفأوا النار وعملوا على توسعة النقب أكثر وعمل النقابون تحت جنح الظلام ثم أشعلت النيران تحت النقب فهوى الجدار ودخل



المسلمون الحصن عنوة وقاتلوا من فيه حتى صيروهم بين قتيل وأسير، كما أطلقوا من فيه من أسارى المسلمين فقال ابن نفاذة فى ذلك:

هلال الفرنج أتى عاجلاً   وقد آن تكسير صلبانها
ولو لم يكن قد دنا حتفها   لما عمرت بيتَ أحزانها

* * *

(٦٧)
معركة الجوزاء
٥٧٨ هـ

سببها: أن حاكم الكرك الصليبى أرناط أراد أن يهدد المسلمين في أقدس مقدساتهم وذلك بقصده لمكة والمدينة وتدمير الكعبة والمسجد النبوي، فصنع قطعًا من الأسطول في الكرك ثم نقله إلى خليج العقبة وجمع سُفنه هناك بسرعة ثم ركب بجنده البحر واتجه نحو عيذاب وهي ميناء على البحر الأحمر مقابل جدة على البر السوداني، وكان يسمى البحر الأحمر باسمها في وقت من الأوقات.
فأفسد أرناط في السواحل ونهب وقتل حيث لم تكن تلك البلدان على البحر الأحمر تشهد غارات للإفرنج فلم يأخذوا في هذا البحر حذرهم، وأرسل صلاح الدين إلى نائبه بمصر يخبره بأمر أرناط، فسير أسطولاً في البحر الأحمر ليبحث عن أرناط بقيادة حسام الدين لؤلؤ ففك الحصار أولاً عن أيلة التي ترك أرناط عندها عدة سفن فقضى عليهم وأسر سفنهم ثم اتجه نحو عيذاب فلم يظفر بهم ثم بلغ رابغ فأدركهم بساحل الجوزاء، فأوقع بهم ودارت معركة حامية فلما رأوا الهلاك خرجوا إلى البر واعتصموا بشعاب تلك المنطقة، فنزل إليهم حسام الدين وقاتلهم أشد قتال، وأخذ خيلاً من أعراب المنطقة لتساعده على اللحاق بهم فقتل أكثرهم، وأسر الباقي، أما أرناط فقد فر متخفيًا وعاد إلى الكرك بعد فشل حملته، وأخذ حسام الدين عددًا من الأسرى ونحرهم بمنى نكالاً لهم لما فعلوا، ولما أرادوا أن يفعلوا ببيت الله الحرام.



(٦٨)
معركة حطين
٢٥ ربيع الآخرة سنة ٥٨٣ هـ

قائد المعركة من المسلمين: صلاح الدين الأيوبي ومعه عدد من قادة الولايات والأبناء في جيش نظامي يزيد على اثني عشر ألفاً ومثلهم من المتطوعة.

قائد الإفرنج: ملك بيت المقدس بردويل ومعه عدد من قادة الأقاليم أمثال أرناط حاكم الكرك وحاكم طبرية وطرابلس وعكا والناصرة وصور.

سببها: أن صلاح الدين قد أعد جيشًا قويًا وقصد ممالك الصليبيين ليحررها من نيرهم، فكان قصده مدينة طبريا، وعلم الإفرنج بذلك فجمعوا كل ما أمكنهم جمعه لخوض هذه المعركة الفاصلة فبلغت جموعهم ما بين خمسين ألفًا إلى ثلاثة وستين ألفًا. ونزل الإفرنج في صفورية، أما صلاح الدين فنزل على طبريا وحاصرها بجزء من جيشه وتقدم بالجزء الآخر باتجاه الفرنج، لكن الإفرنج لم يبرحوا مكانهم رهبة وخوفًا، أما مدينة طبريا فسقطت بأيدى المسلمين وبقيت قلعتها تقاوم، فلما علم الإفرنج بذلك دب الخلاف بينهم، فمن قائل بمهاجمة المسلمين لاستنقاذ طبريا وملكهم يطلب منهم التريث في الموقع، ثم اتفقوا على التحرك لمواجهة المسلمين، وكان المسلمون قد سيطروا على موارد المياه والفرنج قد نفذ عندهم الماء، والجو حر في آب ـ أغسطس ـ وتلاقى الفريقان في حطين، ورمى الرماة دفعات من السهام نحو الصليبيين فكانت كالجراد فقتل عدد من خيولهم ورجالهم، والصليبيون مندفعون في قتالهم ليصلوا إلى الماء في طبريا فصدهم صلاح الدين عن مرادهم، ووقف بالعسكر في وجوههم وحرض

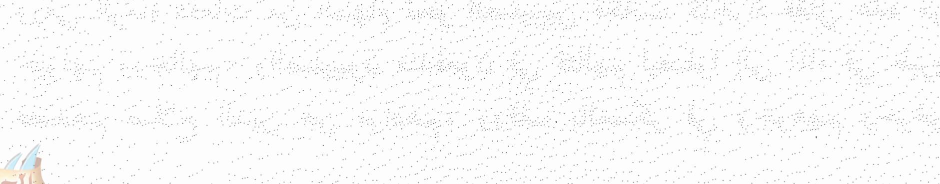


المسلمين على الثبات فتقدم غلام فحمل على الإفرنج وقاتل قتالاً عجب منه الجميع ثم تكاثر عليه الإفرنج وقتلوه فأثر ذلك في نفوس المسلمين، وثارت ثائرتهم وانقضوا على الإفرنج وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وحمل الإفرنج لشق صف المسلمين، فرأى القائد تقي الدين عمر حملة الإفرنج حملة مكروب فأمر بفتح الطريق لهم فخرج القمّص وأصحابه ثم التأم الصف، ثم أشعل المسلمون النار في الزرع اليبس فاحترق، وكانت الريح على الإفرنج فزادهم عطشًا على عطشهم، وبدأ الإفرنج يحملون على المسلمين حملات شديدة ويتصدى لهم المسلمون فلايرجعون إلا وقد نقص منهم عدد كبير، حتى أحاط بهم المسلمون وأخذتهم السيوف، ثم التجأ عدد منهم إلى تل حطين، ونصبوا للملك خيمة وتبعهم المسلمون والأمر ما بين كر وفر، ولم تتوقف عليهم الحملات إلى أن رموا سلاحهم وأرهقهم التعب والعطش واستسلموا فكبر صلاح الدين وخر ساجدًا لله. وكان من ينظر إلى القتلى يقول: ليس هناك أسرى، ومن ينظر إلى الأسرى يقول: ليس هناك قتلى.

وكان من جملة الأسرى ملك بيت المقدس قائد الحملة، وأرناط حاكم الكرك، وأما صاحب طرابلس فلما نجا من المعركة اغتم فمات، كما قتل أرناط لأنه غادر تعرض لقوافل الحجاج، كما أراد التعرض لمكة والمدينة.. وتعد هذه المعركة من المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام، حيث انهارت بعدها كثير من قلاع الصليبيين وحصونهم وتقلص نفوذ الصليبيين وقل عددهم، وطلبوا مددًا من أوربا.



❋ ❋ ❋





(٦٩)

فتح بيت المقدس

في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ

سبب الفتح: أن النتائج الحاسمة في معركة حطين وظهور المسلمين بمظهر القوة شجعت القادة والجند والعلماء وعامة الشعب على المطالبة بفتح القدس فعقد صلاح الدين العزم على فتح بيت المقدس وتقدم بجيوشه لحصار المدينة بعد أن أمر أسطوله في مصر بالتوجه لقطع المدد البحري عن الصليبيين، وعلم الصليبيون فحشدوا كل طاقاتهم بقيادة بطريقهم الأكبر ومعه «باليان» حاكم الرملة، وقد عزموا على الموت وهو أهون عندهم من تسليم القدس، وحصلت مناوشات بين مقدمة جيش المسلمين وطلائع الإفرنج فكانت الحرب سجالاً، وتقدم المسلمون وأحاطوا بالقدس فرأوا على أسوار المدينة من الجند ما هالهم لكثرة حشدهم وجندهم الذي اجتمع لهم، وطاف صلاح الدين حول أسواره الشاهقة الممتنعة ثم وجد أن القتال الأيسر من جهة الشمال، من قرب باب عمودا وكنيسة صهيون، فنصب المجانيق في العشرين من رجب فأصبح من الغد فرمى بها، ونصب الفرنج على السور أيضًا مجانيقهم ورموا المسلمين، والمسلمون مقدمون لايهابون إنهم يبذلون أرواحهم لاستنقاذ بيت المقدس من الصليبيين، والصليبيون يدافعون عنه بدافع العقيدة أيضًا فلذلك اشتد القتال، وكان للإفرنج كل يوم خيالة يخرجون ويغيرون على المسلمين ويحدث قتلى من الطرفين وزاد من حماس المسلمين مقتل عز الدين عيسى وهو من شجعان الأمراء، وكان يباشر القتال بنفسه، فحمل فرسان المسلمين حملة رجل واحد فأزالوا الفرنج عن مواقفهم فأدخلوهم بلدهم ووصل

المسلمون إلى الخندق فتجاوزوه والتصقوا بالسور فنقبوه وزحف الرماة يحمونهم والمجانيق توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار ثم نقبوا السور وحشوه بالمتفجرات، وهنا أسقط في أيد الإفرنج واجتمعوا واتفقوا على تسليم البلدة بالأمان وأرسلوا إلى صلاح الدين فرفض وقال سأعاملكم مثلما عاملتم أهله يوم فتحتموه، فطلب باليان الأمان ليصل إلى صلاح الدين فأمنوه وكلم صلاح الدين بالتسليم مع الأمان فرفض فلما يئس قال باليان: إعلم أننا في هذه المدينة خلق كثير لا يعلمهم إلا الله وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان فإذا لم تجبهم ولم يجدوا إلا الموت قاتلوا، فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا ومتاعنا لانترككم تغنمون ديناراً ولادرهما ولاتسبون ولا تأسرون، فإذا فرغنا خربنا الصخرة والمسجد الأقصى، ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير، فإذا فعلنا هذا خرجنا للقائكم وحينئذ لايقتل منا رجل حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء أو نظفر كرامًا، فاستشار صلاح الدين أصحابه ثم قبل منهم التسليم مع الأمان وفرض عليهم مالاً على الكبير مقداراً، وعلى المرأة مقداراً، وعلى الصبي مقداراً، وأعطاهم مهلة أربعين يومًا ليجمعوا ذلك ثم ليخرجوا آمنين، ولقد وفّى قسم منهم وعفى صلاح الدين بما عرف عنه من رحمة عن كثير من فقرائهم وعجزتهم. وتسلم المدينة في ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ وأحضر المنبر الذي صنعه نور الدين، وخطبت أول جمعة في الرابع من شعبان ٥٨٣ هـ.

***



(٧٠)
معركة حصن بَرْزَيَة
في جمادي الآخرة ٥٨٤ هـ

سببها: خطر تلك القلعة على المسلمين من حيث الموقع والتحكم في الطرقات وهي تقع في منطقة الغاب التابعة لمدينة حماة حاليًا قريبًا من قلعة أفاميا إذ تقع أفاميا إلى الشرق منها وبينهما بحيرة يشكلها نهر العاصي.

وصلها القائد صلاح الدين الأيوبي فطاف حولها ليحدد مكان الهجوم، فوجد أنها لاترام من جهتي الشمال والجنوب وهي صعبة أيضًا من جهة الشرق فحدد الهجوم من جهة الغرب حيث يدور الوادي حولها من هذه الجهة فنصب المنجنيقات وأمر بالرمي عليها لكنّ الإفرنج في القلعة نصبوا منجنيقًا على القلعة ورموا منجنيقات المسلمين فعطلوها، فقرر صلاح الدين مهاجمتهم واستغل كثرة جنوده وقلة المدافعين في القلعة، فقسم جيشه إلى ثلاثة أقسام وأمر القسم الأول بالهجوم فإذا تعب انسحب وحل محله الثاني ثم الثالث، وبدأت الفرقة الأولى بقيادة زنكي ابن مودود فاقتربت من القلعة فتلقت سيلاً من الحجارة التي إذا صدمت الجندي قذفته إلى أسفل الوادي فيصبح أشلاء ممزقه، وأمطرها المسلمون بالنشاب ليشلوا حركتهم، واستمر الهجوم إلى ماقبل الظهر، وكان الوقت صيفًا والشمس متوهجة ثم انسحب هذا القسم فقام القسم الثاني وأخذ مكانه في الهجوم وهم من خواص جند صلاح الدين فأنشبوا القتال حتى الظهر، وأرادوا العودة فردهم صلاح الدين لتطويل مدة الزحف، ثم أمدهم بالقسم الثالث فنهضوا ملبين وتكاثروا على القلعة ولم يستطع الإفرنج مواصلة القتال فتعبوا حتى عجزوا عن حمل الحجارة الكبيرة



التي كانوا يرمونها، ثم انضمت الفرقة الأولى بعد أن استراحت فوصل المسلمون إلى السور ورقوه وخالطوا الإفرنج وهزموهم فتركوا السور وهربوا إلى أعلى الحصن، وهو أشبه بالقلعة في داخله وأخذوا معهم ماكان عندهم من أسرى المسلمين والأغلال في أيديهم وأرجلهم وطرحوهم أعلى السطح، ودخل الفاتحون مكبرين، كما رقي القلعة جنود من جهة الشرق وطهروا تلك الأماكن من الإفرنج وفقد الإفرنج زمام المبادرة، وفقدوا الاتصال ودبت الفوضى في صفوفهم، ثم إن المسلمين الأسرى لما سمعوا تكبير المسلمين في القلعة كبروا وهم في السطح ليعلموهم مكانهم فظن الإفرنج أن أعلى القلعة قد أخذ أيضًا، فخافوا وفتحوا الأبواب مستسلمين، فسقط هذا الحصن الحصين وأراح الله المسلمين من شر ساكنيه.

وقد فتح صلاح الدين أكثر من عشرين قلعة وحصنًا في هذه المناطق الجبلية كلها بمثل هذه الحروب، مثل حصن بكاس والشغر ودرب ساك وبغراس وسرمينية وصفد وكوكب.. الخ فكانت بمثابة مخالب قاتلة موجهة من الصليبيين للمسلمين فلا تستقر لهم تجارة ولا زراعة ولا تنقل أو سفر بسببها.

***



(٧١)

معارك عكا

ما بين ٥٨٥ هـ - ٥٨٧ هـ

بعد هزيمة الصليبيين في حطين، ووقوع معظم قادتهم في الأسر ومقتل كبارهم في الحرب سهل على صلاح الدين فتح المدن، وكان من بينها عكا التي هاجمها بعد طبريا وسملها أهلها دون قتال ثم رحلوا عنها وملكها المسلمون وذلك سنة ٥٨٣ هـ مستهل جمادى الأولى.

أما الإفرنج فلم يبق بأيديهم سوى صور التي تجمع فيها كل الإفرنج الذين نزحوا من المدن التي استردها المسلمون، ومن الذين هربوا من وقعة حطين، وكانوا جمرة الإفرنج، وقد أخذهم الحنق والغضب من المسلمين، والمدينة الثانية هي إنطاكية وقد وقعت مع صلاح الدين لما حاربها هدنة لمدة ثمانية شهور.

وعلمت أوربا بما حل بالصليبيين بالشام على يد صلاح الدين فأرسلت حملة كبيرة ومددًا عظيمًا عن طريق البحر، من روما وصقلية وفرنسا وبريطانيا وتوالت الحملات وكان مقصدها صور التي ضاقت بأهلها، وقد عد بعض القادة تجمع الصليبيين في صور من أخطاء صلاح الدين حيث جعلها لهم نقطة تجمع فاستشرت وقويت، أقول: لكنه الوفاء بالعهد والله المستعان. فهاجم الصليبيون في صور صيدا لكنها صمدت وردت المهاجمين فقصدوا عكا لأنها مفتاح القدس، فكان لهم جيش بري، وآخر يحاذيهم في البحر، إلى أن وصلوا عكا فأحدقوا بها برًا وبحرًا، وقاتلهم صلاح الدين لكنه لم يستطع زحزحتهم عن عكا، كما لم يستطع المسلمون



الوصول إلى عكا فقد عزلها الإفرنج بإحكام وعبأ صلاح الدين كل قواه في البر والبحر وتقدم ابن أخت صلاح الدين تقي الدين عمر وحمل من جهته حملة شديدة على مَنْ يليه من الإفرنج فأزاحهم والتجؤوا إلى إخوانهم من الإفرنج وأخلوا مكانهم فأخذه المسلمون وشقوا طريقًا إلى عكا فدخلوا وأمدوا المسلمين بالمؤن والسلاح والقادة، ثم حاول المسلمون إجلاء الفرنج عما بقي بأيديهم حول عكا فلم يقدروا وطالت المناوشات والحروب، وتفرق عسكر صلاح الدين، فقد طال ابتعادهم عن أهلهم وأكثرهم من الجزيرة والفرات وأطراف الشام، كما خاف صلاح الدين من سقوط مدن الساحل الأخرى فأرسل لها جندًا يحرسها، وعلم الإفرنج بذلك فاجتمعوا على المباغتة وخرجوا كالجراد المنتشر وباغتوا القائد تقي الدين عمر فتراجع أمامهم فأمده صلاح الدين بفرقة من القلب، فعطف الإفرنج على القلب لنقص جنده فاخترقوه وصعدوا التل قاصدين خيمة صلاح الدين ثم أبعدوا عن الجيش وانقطع سيلهم، وهنا عطفت عليهم الميسرة وتلقتهم في طريق العودة، كما نادى صلاح الدين أصحابه في القلب فاجتمعوا إليه وحصروا الإفرنج العائدين بينه وبين الميسرة فأخذتهم السيوف وقتل منهم طائفة فاقت العشرة آلاف كما أسر آخرون وكانوا من خيرة فرسان الإفرنج، وأعد صلاح الدين جيشه للهجوم مستغلاً ما خسره الإفرنج وإذا بالصياح من داخل مخيم صلاح الدين فقد ظن بعض الجنود أن الهزيمة كانت على صلاح الدين فقاموا بالنهب والسلب والهروب، مما أوقع الاضطراب في صفوف الجند فأجل صلاح الدين هذه الخطوة ليصلح العسكر ويعيد الأمور إلى نصابها مما أعطى الصليبيين فرصة لإصلاح شأنهم أيضًا.

وأصبحت الأرض والمقام فيها لايطاق من رائحة القتلى والنتن[1] ورحل المسلمون خشية انتشار الأمراض في الجيش التي بدأت تظهر بوادرها، إلا أن الإفرنج لم يرحلوا وتمسكوا بما معهم بل انبسطوا في الأرض بعد رحيل جيش المسلمين وشددوا في حصار عكا، ثم حفروا خندقًا بينهم وبين صلاح الدين كي

---

(١) تصديقًا لهذا فقد كنت يومًا في البر فإذا رائحة منتنة قاتلة قد ملأت حيزًا واسعًا فأبصرت فإذا جيفة حمار، قد أثرت هذا التأثير فما بالك بآلاف القتلى من البشر والدواب؟! كما أن لها أثرًا لاينكر في نقل الأوبئة والطاعون.



لايستطيع الوصول إليهم وفك الحصار، ومرض صلاح الدين فلم يستطع منعهم من حفر الخندق وهكذا لاح في الأفق بوادر تفوق الصليبيين وضاقت الأرزاق في عكا، وفي ذروة الأزمة أسر المسلمون مركبًا للإفرنج في البحر وكان محملاً بالأقوات فتنكروا في زي بحارة من الإفرنج وأدخلوه إلى عكا، وقد مر من بين سفن الصليبيين ولم يشكّوا أنه لهم، وفي سنة ٥٨٦ هـ شرع صلاح الدين في عمل عسكري لفك الحصار عن عكا، فحاصر الإفرنج الذين حول عكا وقاتلهم، فكانوا يقاتلون من الخنادق ولا يخرجون إلا بغتة للإغارة، وهم بين نارين، يصدون هجمات صلاح الدين من جهة وهجمات أهل عكا من جهة أخرى، ومع ذلك صمدوا وتشبثوا بمواقعهم، ثم صنع الإفرنج أبراجًا عالية بارتفاع أسوار عكا وجعلوا لها عجلاً كثيراً وكسوها بجلود أشبعت بمواد كيميائية لا تؤثر فيها النيران ودفعوا الأول منها باتجاه الأسوار ليحتموا به من سهام المسلمين ونيرانهم، وبعد قتال من الجانبين واقتراب البرج من السور، وقبل هبوط الإفرنج على السور تمكن صناع النار اليونانية من صنع نار أحرقت البرج بمن فيه ثم أحرقت البقية من الأبراج، وفشلت هذه الخطة الإفرنجية، ثم تمكن المسلمون من إدخال مدد إلى عكا عن طريق البحر، بواسطة حملة بحرية انطلقت من مصر وهزمت أسطول الإفرنج، ثم جاءت الحملة الصليبية الثالثة التي تجمعت بعد أن علم الصليبيون بسقوط القدس وغيرها من المدن، فأما الحملة البرية فكانت بقيادة ملك الألمان وكان طريقها من القسطنطينية إلى آسيا الصغرى - تركيا - ثم بلاد الشام، ولما وصلوا إلى آسيا الصغرى تصدى لهم قليج أرسلان قائد السلاجقة فأوقع بهم إصابات وخسائر على طول الطريق، ونقص عددهم ثم وصلوا إلى انطاكية، وأراد ملكهم أن يستحم في نهر هناك فغرق ومات.

ثم انتشرت الأمراض بين جنوده فهلك منهم أربعون ألفًا، وعاد ألف إلى ديارهم بحراً فهبت على سفنهم عاصفة فأغرقتهم وكفي الله المؤمنين القتال كما اشتبك الإفرنج مع العساكر المصرية[1] المحاصرة لهم من الجنوب وصبر الفريقان ثم ظفر عسكر مصر وصدوا الإفرنج بعد أن كبدوهم عشرة آلاف قتيل وخمدت جمرة

(١) بقيادة أخى صلاح الدين الملك العادل.



الإفرنج. ثم أتى للإفرنج مدد من البحر من قبل فرنسا بقيادة ابن أخي ملك فرنسا، ومعه الأموال والمدد والرجال والسلاح فقويت نفوس الإفرنج، ونصب هنري المجانيق حول عكا والنفاطات، وقبل اكتمالها هجم عليه أهل عكا فدمروها وأخذوا ما يمكن أخذه، إذ كانوا يمنعون أي عمل يهدد أسوارهم، ثم عمل الإفرنج تلاً من تراب بعيدًا عن البلد، ثم نقلوا هذا التل بالتدريج وهم يستترون به إلى أن اقتربوا من البلد وصار بإمكان المنجنيقات أن تعمل وراءه لقصف البلد، وكان المدد من الطعام والسلاح يصل إلى عكا من جهة البحر، وألهب بابا روما حماس نصارى أوربا فتوالى أيضًا المدد إلى الصليبيين، ثم إن القائد هنري حشد الصليبيين وأراد قتال صلاح الدين وأبقى قسمًا من جيشه أمام عكا لمناجزتها، فانسحب صلاح الدين قدر ثلاثة فراسخ، وجمع أمراءه ورتبهم لهذه الجولة وخرج الصليبيون من خنادقهم كالجراد المنتشر في عدد الرمل والحصى، ولما أشرفوا على جيش المسلمين وجدوه مستعدًا للقائهم وقد صفوا مصافًا لم يشهد مثله من قبل، فارتاعوا لذلك ولقيهم أهل السهام فأمطروهم بالسهام فلما رأوا ذلك تراجعوا وتحولوا إلى جهة أخرى والسهام تلاحقهم ثم اقتربوا منهم والتحموا معهم، وندم الإفرنج على خروجهم من الخنادق لأنهم لم يتوقعوا هذا الجيش، فلزموا أماكنهم وباتوا ليلهم ثم عادوا إلى خنادقهم والرماة خلفهم وكانوا لايتركون قتلاهم بل يحملونهم معهم لكيلا لايعلم المسلمون ما أصابهم، وكان صلاح الدين مريضًا ينتابه مغص شديد فلم يتمكن من إعطاء الأوامر للجيش بالهجوم، لذلك لم يصطدم بالعدو سوى الرماة. وخرج بعد مدة أربعمائة فارس من الإفرنج واصطدموا بسرية المسلمين فتصنع المسلمون الهرب حتى أبعدوهم عن عسكرهم فخرج لهم كمين فأبادوهم أجمعين.

ولتطاول الزمن على عكا وحصارها طلب الأجناد من صلاح الدين تسريحهم إلى أهليهم واستبدالهم بآخرين وفعل مثل ذلك بجند عكا وقادتها، ويعد هذا من التفريط ولكن لاحيلة له بمنعهم فاستبدلوا في فترة الشتاء حيث رفع الصليبيون الحصار البحري خوفًا على سفنهم من العواصف. وفي سنة ٥٨٧ هـ وبعد أن ولى الشتاء عاود الإفرنج الحصار وضيقوا على البلد، فلم يعد ينفذ إليها أحد إلا سابح يأتي بكتاب أو خبر، وأدى تهاون صلاح الدين إلى حسم الموقف وهو يظن



أن الوقت لصالحه فإذا الأمر غير ذلك، فقد وصلت إمدادات هائلة، وتبنى الحملات ملوك أوربا، فقد جاء فيليب ملك فرنسا على رأس حملة كبيرة، وأرسل صلاح الدين إلى أمير بيروت لينجد أهل عكا بحرًا ففعل وسير السفن وفي البحر التقت مع خمس مراكب لملك الانجليز وكانت طليعة له فأسرها المسلمون. ومع ذلك فالإفرنج لم يكفوا عن عكا، وصلاح الدين من ورائهم يقاتلهم والخندق بينه وبينهم ليخفف عن أهل عكا شدة الحصار، ثم وصل ملك الانجليز بعد أن استولى على قبرص وجعلها محطة لجنده وكانت تابعة للروم، ووصل إلى عكا في خمس وعشرين سفينة كبيرة مملوءة رجالاً وعتادًا، فعظم شر الإفرنج، وازداد حصار عكا وصعب الأمر على سكانها، ثم أرسلت إلى عكا سفينة عظيمة فيها أقوات وجنود فحاصرتها سفن الانجليز ورأى قائدها ألا يستسلم ويغنمها الأعداء فأحدث فيها خرقًا وأغرقها، ونوع الصليبيون في مهاجمة عكا تارة يزحفون بالدبابات فيحطمها أهل عكا وتارة يزحفون بالأكباش لدك السور والأبواب فيستولي عليها المسلمون ثم تقدموا نحو البلد بتل ترابي يحركونه رويدًا رويدًا حتى اقتربوا من الأسوار. ثم تسلم الإفرنج عكا حيث استسلم قائدها علي بن أحمد المعروف بالمشطوب، وكان أن تخلى عنها عدد من الأمراء وهربوا ليلاً فدب الوهن في بقية المدافعين، ثم قام صلاح الدين بعدة حملات لم تفلح في فك الحصار، ورفع أهل عكا أعلامًا فهم المسلمون منها أنهم في ضائقة فزادوا من حربهم للإفرنج وكادوا يدخلون عليهم خنادقهم لكن الإفرنج عادوا وحفظوا الخنادق ثم اتصل المشطوب بالإفرنج وعرض عليهم تسليم البلد وبذل لهم أموالاً وأسارى، وقدم لهم الصليب وحلفوا على ماتم الاتفاق عليه، وملكوا البلد ثم غدروا وتحفظوا على المسلمين، ثم قتلوا أغلبهم واستبقوا عندهم رؤوس القوم ليفادوا بهم وسقطت عكا في جمادى الآخرة ٥٨٧ هـ.

وهكذا كانت معارك عكا ملحمة بحد ذاتها دامت أكثر من سنتين وكثرت حولها المعارك وتعد من أكبر المعارك وأطولها في الحروب الصليبية، فقد شهدت معارك برية وبحرية وحرب خنادق وغارات ليلية برية وبحرية وبطولات فدائية.





(٧٢)
معركة مرندة
٥٨٨هـ

قائد المعركة من المسلمين السلطان شهاب الدين الغوري ومعه مائة ألف.

قائد المشركين من الهنود: الملك «كولة» ومعه ضعف عدد جيش المسلمين.

سببها: أن السلطان شهاب الدين غزا بلاد الهند وملك مدينة تبرندة وشرستي ثم حصل اشتباك مع الملك «كولة» وهزم المسلمون بعد أن جرح شهاب الدين جرحًا بليغًا، فحمله جنده بعد أن أغمي عليه، كان ذلك سنة ٥٨٣ هـ.

في هذه السنة صمم على غزو الهند والانتقام من ملكهم، وكان في الوقت نفسه غاضبًا على الغورية الذين كانوا سبب الهزيمة، وكان شهاب الدين قد نذر أن يقاتل الملك الهندي وألا يعود إلا بنصر أو شهادة، وقال لجنده: أنا سائر إلى عدوي ومعتمد على الله تعالى لا على الغورية ولا على غيرهم فإن نصرني الله سبحانه ونصر دينه فمن فضله وكرمه، وإن انهزمنا فلا تطلبوني فيمن انهزم ولو هلكت تحت حوافر الخيل.

فانطلق في بلاد الهند يفتح وينال من الهنود فلما سمع الملك «كوله» بقدومه أعد جيشًا ضخمًا وتقدم يطلب المسلمين، فانسحب من أمامه شهاب الدين وكلما اقترب منه انسحب ونزل منزلاً آخر وَقَصْدُهُ أن يجره بعيدًا عن دياره وأن يغيظه، فقال الملك الهندي: «أعطني يدك، إنك تصافقني في باب غزنه ـ عاصمة شهاب الدين ـ حتى أجيء إليك وإلا فنحن متقلون، ومثلك لايدخل البلاد شبه اللصوص ثم يخرج هاربًا، ما هذا فعل السلاطين» فأعاد الجواب: «إنني لا أقدر



على حربك» فطمع الملك الهندي وأخذه الغرور فظل يتبعه إلى أن أصبح قريبًا من مرندة. وهنا قسم شهاب الدين عسكره إلى قسمين وأمرهم أن يدوروا وراء الجبل ليكونوا وراء العدو، وعددهم سبعون ألفًا، وبقي هو في ثلاثين ألفًا، وفي الصباح قبل طلوع الشمس ـ عادة الهنود لا يبرحون مضاجعهم إلى أن تطلع الشمس ـ أعطيت الأوامر للجيش وراء الجبل بالهجوم والملك مواجه للسلطان شهاب الدين، وإذا بالجند المسلمين خلف العدو يقتلون الهنود وتدور الدائرة عليهم وانتبه الملك وقال: من يقدم علي، أنا هذا؟ والقتل في الهنود مستمر والنصر قد ظهر للمسلمين وانطلق السلطان شهاب الدين وصدم جيش العدو من الأمام، وهنا طلب ملك الهند فرساً سريعًا ليهرب فاستوقفه أصحابه وقالوا: إنك حلفت لنا أنك لاتتركنا وتهرب، فنزل عن الفرس وركب الفيل واشتد القتال، فانتهى المسلمون إليه فأسروه والقتل مستمر في الهنود، فأخذتهم السيوف من كل جانب وفر من استطاع الفرار، وأحضر الملك الأسير إلى شهاب الدين، وتقدم السلطان ففتح حصن أجمير وبلاد كثيرة حوله، وقتل ملك الهند وعاد ظافراً إلى غزنه بعد أن ولى قطب الدين أيبك على البلاد المفتوحة.

* * *



(٧٣)
معركة نهر ماجون
٥٩٠هـ

قائد المسلمين: السلطان شهاب الدين الغوري، يساعده قطب الدين أيبك.

قائد الهنود: ملك بينارس ومعه مليون جندي.

سببها: تزايد نشاط المسلمين في الهند والفتوحات فيها مما أزعج ملك بينارس ويعد من أكبر الملوك في الهند، وبلاده من أوسع البلدان الهندية، سار ملك بينارس بهذا الجيش الضخم يتقدمه سبعمائة فيل وقصد بلاد المسلمين، فعلم به السلطان شهاب الدين الغوري وخف لمقابلته قبل أن يتوغل في بلاد المسلمين والتقى الجيشان على نهر الماجون، ودارت معركة حامية بين الفريقين، صبر فيها الهنود لكثرتهم وصبر فيها المسلمون لشجاعتهم وإيمانهم بالله، فانهزم الكفار ونصر الله المسلمين وكثر القتل في الهنود حتى امتلأت الأرض بجثثهم وجيفت، وحاز المسلمون النساء والصبيان، كما قتل في المعركة عدد من الأفيال وأسر تسعون فيلاً ولاذ الباقي بالفرار وقتل ملك الهند فلم يعرف إلا بأسنانه التي شبكها بالذهب، ودخل شهاب الدين بينارس وهي مدينة مقدسة في الهند وحمل مافيها من نفائس وأموال.



(٧٤)

معركة مرج الحديد

وتسمى «الأرك» سنة ٥٩١ شعبان

تعد من أعظم المعارك الحربية التي انتصر فيها المسلمون بالأندلس ومن أكثرها جندًا.

قائد المسلمين: أبو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن.

قائد النصارى: الفونش ملك الإفرنج في إسبانيا.

سببها: أن الفونش كتب كتابًا إلى يعقوب بن عبد المؤمن فيه تحد وإساءة أدب ومما جاء فيه «باسمك اللهم فاطر السموات والأرض؛ أما بعد أيها الأمير فإنه لايخفي على كل ذي عقل لازب ولا ذي لب وذكاء ثاقب، أنك أمير الملة الحنيفية كما أنا أمير الملة النصرانية، وأنك من لايخفي عليه ماهم عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية، واشتمالهم على الراحات، وأنا أسومهم الخسف وأخلي الديار وأسبي الذراري وأمثل بالكهول وأقتل الشباب، ولاعذر لك في التخلف عن نصرتهم وقد أمكنتك يد القدرة وأنتم تعتقدون أن الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، والآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفًا فقد فرض عليكم قتال اثنين منا بواحد منكم، ونحن الآن نقاتل عددًا منكم بواحد منما ولا تقدرون دفاعًا ولا تستطيعون امتناعًا، ثم حُكي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال وتَمْطُل نفسك عامًا بعد عام تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى ولا أدري، الجبن أبطأ بك أم التكذيب بما أنزل عليك». ثم يطلب تحديه بالمبارزة في أي مكان يختاره، فإذا غلبه غنم ما معه وإذا غلب فعليه أن يرضى بأن يصبح الفونش زعيم الملتين... الخ الكلام..



فكتب يعقوب بن عبد المؤمن على قفا الرسالة: (ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون).

ثم جمع يعقوب جيشًا كثيفًا وعبر المضيق وتقدم لقتال الفونش، وحشد النصارى جيشًا ضخمًا أيضًا من قاصي البلاد ودانيها وأقبلوا مجدين لملاقاته وهم واثقون بالنصر، فالتقى الجيشان في ٩ شعبان شمالي قرطبة عند قلعة رياح بمكان يعرف بمرج الحديد واقتتلوا قتالاً شديدًا، وكانت الدائرة عند الصدمة الأولى على المسلمين لكنهم صبروا وجمعوا أنفسهم ولاقوا الإفرنج بروح عالية طالبين الشهادة فكانت الدبرة والهزيمة على النصارى، ففروا في كل اتجاه وأخذتهم سيوف المسلمين وخلف المنهزمون وعلى رأسهم الفونش وراءهم مائة وستة وأربعين ألف قتيل وثلاثة عشر ألف أسير ومئات الآلاف من الخيام والعدد والبغال والخيل والحمير وسبعين ألف درع، وكان عدد شهداء المسلمين عشرين ألفًا ثم تبعهم أبو يوسف يعقوب وفتح قلعة رياح. وحلق الفونش رأسه ونكسه وركب حمارًا وأقسم ألا يركب فرسًا إلا بعد الثأر وفي السنة التالية جمع جيشًا ضخمًا فهزمه أيضًا أبو يوسف وتابعه حتى طليطلة فحاصرها، ولولا أحداث حصلت في المغرب ضد يعقوب لكان فتح طليطلة، ولكن لأمر يريده الله...

❊ ❊ ❊



(٧٥)
معركة العقاب
في صفر سنة ٦٠٩ هـ

قائد المعركة من المسلمين سلطان الموحدين الناصر لدين الله محمد بن يعقوب بن عبد المؤمن والده يعقوب قائد معركة الأرك الشهيرة.

قائد الإفرنج: الفونش الذي هزمه يعقوب في معركة الأرك

سببها: أن الفونش استغل وفاة السلطان المنصور يعقوب وقام بغارات على المدن والقلاع الإسلامية، فقتل وأسر وسبى، فاستعد الناصر لقتال نصارى الأندلس وجمع جيشًا كبيراً من إفريقيا وانضم إليه أمراء الأندلس المسلمين حتى اجتمع لديه جيش يفوق ستمائة ألف، وهو أكبر جيش إسلامي حُشِد أو دخل المعركة حتى ذلك التاريخ، وحشد النصارى جيشًا ضخمًا أيضًا وأتت الإمدادات من كل نواحي أوربا وذلك بتشجيع من بابا روما للثأر مما حدث في معركة الأرك، وقسم الناصر جيشه إلى خمسة جيوش، فتقدم وحاصر حصن سلبطرة فاستعصى عليه وأبى أن يغادره رغم نصيحة القادة بذلك، لأنه ليس من المعقول أن يحاصر حصنًا في مثل هذا الجيش ويشل حركته حتى مل أكثر الجند، وفتحه بعد ثمانية شهور ثم التقى مع جيش النصارى في معركة قرب حصن العقاب ودارت معركة رهيبة وكان النصر باديء الأمر للمسلمين، لكن أشيع عن مقتل الناصر فاضطرب الجيش ودارت الدائرة على المسلمين وقتل منهم خلق كثير وكانت هذه المعركة قاصمة الظهر للمسلمين في الأندلس فقد تفرق جمعهم وعاد كل أمير يستقل ببلده ويؤدي الجزية للنصارى، كما توفي الناصر بعدها بأقل من سنة ولم تقم للمسلمين بعدها دولة

موحدة في الأندلس إلى أن سقطت غرناطة.. وهذا لايمنع من وجود معارك مشرفة بين حين وآخر كما سنرى في المعارك التي سنذكرها.

ذكرتُ هذه المعركة الخاسرة للعبرة وعدم اغترار المسلمين بالعدد فإنهم لم يهزموا أعداءهم في المعارك المظفرة بكثرة العدد، وإنما بالإيمان والاتحاد والمشورة والخطط الحربية الناجحة، وفي هذه المعركة عُدِم كل ذلك (فاعتبروا يا أولي الأبصار).

* * *



(٧٦)

معركة بلق

سنة ٦١٧ هـ

قائد المسلمين: جلال الدين بن خوارزم شاه

قائد المغول: أحد أولاد جنكيز خان.

سببها: أن جيش التتار بدأ التسلل من الشرق يريد بلاد الإسلام خصوصًا البلدان المجاورة وقصد عاصمة المسلمين الشرقية في ذلك الوقت وهي مدينة «غزنة» ومعه أكثر من ستين ألف مقاتل، فخرج إليهم جلال الدين واقتتلوا مدة ثلاثة أيام ثم أنزل الله نصره على المسلمين وهزموا جيش التتار شر هزيمة وعاد الجيش إلى جنكيز خان مهزومًا مكلومًا فكانت صدمة كبرى لجنكيز خان حيث لم يعرف الهزيمة من قبل.

وترجع أهمية هذه المعركة إلى أن المسلمين الذين أخذهم الرعب من التتار عرفوا أن بإمكانهم إلحاق الهزيمة بهم إذا ما عقدوا العزم وحكموا شعوبهم بالعدل واتحدوا بنية صادقة.

وكان نتيجة هزيمة التتار المريرة أن ثار أهل الطالقان بواليهم التتري فقتلوه وطردوا جنده.

* * *



(٧٧)
معركة كابل
سنة ٦١٧هـ

قائد المسلمين: جلال الدين بن خوارزم شاه ومعه عدد من قادة المسلمين الشجعان أمثال سيف الدين بغراق وملَك خان.

سببها: ما حدث في معركة بلق، كما تحدى جلال الدين جنكيز خان وقال له: في أي موضع تريد أن تكون الحرب حتى نأتي إليه.. فجهز جنكيز خان عسكراً كثيفًا وجعل على رأسه أحد أبنائه، والتقى الجيشان قرب كابل وجرى بينهم قتال عظيم فقتل كثير من التتار وغنم المسلمون ما كان معهم كما كان معهم كثير من أسرى المسلمين فاستنقذوهم من الأسر. ورغم الانتصار العظيم للمسلمين في هذه المعركة وقتالهم عدوهم بصبر وثبات وقلوب موحدة، إلا أنهم اختلفوا في اقتسام الغنائم وجرهم هذا إلى الاقتتال، ونجم عنه مقتل أخ لسيف الدين بغراق، فحزن وقال: «أنا أهزم الكفار ويُقتل أخي من أجل هذا السحت»، وكان هو الذي أنشب القتال مع التتار وباشره بنفسه لخبرته بقتال التتار وشجاعته، فلما فقد أخاه من أجل السحت كما قال، انسحب بجيشه وفارق عسكر المسلمين وسار إلى الهند، وقد رجاه جلال الدين بالبقاء فلم يفعل، وبقي جلال الدين في جيشه منفردًا ثم وصلت الأخبار المؤلمة إلى جنكيز خان بهزيمة جيشه ثانية في كابل فغضب وأعد جيشًا كثيفًا وأتى على رأس ذلك الجيش، فانسحب جلال الدين لعجزه عن ملاقاة جنكيز خان، ووصل إلى ماء السند ـ نهر السند ـ وهو نهر كبير فلم يجد السفن ليعبر واضطر إلى قتال جنكيز خان، واقتتل الفريقان أشد قتال ودافع المسلمون عن

أنفسهم وعد من شهد المواقع السابقة أنها كانت لعبًا بالنسبة لهذا القتال والهول الذى شاهدوه، واستمر القتال ثلاثة أيام وكان القتل في الكفار أكثر والجراح أعظم فرجع الكفار وقد انسحبوا، فلما رأى المسلمون أنهم لامدد لهم وقد ضعفوا من المعارك السابقة، ولم يعلموا بما أصاب الكفار أيضًا طلبوا السفن وعبروا للشط الآخر، وفي الغد عاد الكفار إلى غزنه فوجدوها بغير جنود تذكر وعلموا أن المسلمين قد عبروا نهر السند للضفة الأخرى، فاطمأنوا وحاصروا غزنة فملكوها وقتلوا أهلها ونهبوا ما فيها من أموال ومتاع، ثم خربوها وأحرقوها وزالت أعظم عاصمة إسلامية في الشرق كانت على مدى عدة قرون تتولى الفتوحات في الشرق وتحمي الجناح الشرقي من الطامعين. لقد أوقع جلال الدين هزيمة بجنكيز خان دون أن يدري لأنه كان في رعب فلم يقدر نتائج المعركة، وكذلك فإن عدم مشاركة سيف الدين بغراق وانسحابه سابقًا أثر بالغ في هذه الهزيمة، فعليه مسؤولية ما فعله جنكيز خان لاحقًا إذ لو كانت السيوف المسلمة متوحدة لأبيد جنكيز خان، ولما حلت نكباتهم فيما بعد ببغداد.

***

(٧٨)
معركة دمياط
سنة ٦١٨ هـ

قائد المسلمين: الملك الكامل بن العادل يساعده أخواه الملك المعظم والأشرف موسى.

قادة الإفرنج: ملوك الإفرنج المقيمون في ساحل بلاد الشام.

كان الإفرنج قد ملكوا دمياط في مصر في سنة ٦١٥ هـ بعد وفاة الملك العادل واختلاف أبنائه، ثم حصنوها واتخذوها قاعدة لتجمعهم حيث وافاهم الصليبيون في الشام وروما وغيرها وطمعوا أن ينطلقوا منها إلى احتلال مصر كلها، فخرجوا في هذه السنة بجموعهم من دمياط واستنجد الملك الكامل بأخويه صاحب دمشق وصاحب الجزيرة فهبا لنجدته، والتقى الجمعان قرب المحلة، واشتبكت في النيل سفن المسلمين مع سفن الصليبيين، وتفوق أسطول المسلمين وأسروا ثلاث قطع للإفرنج فقويت نفوس المسلمين، وكان الملك الكامل غير واثق من النصر على الصليبيين، فكان يفاوض على الانسحاب الصليبي لقاء تخلي المسلمين عن القدس وعسقلان وطبريا وصيدا وجبلة واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين ماعدا الكرك، لكن هذا الجمع طمع بضعف المسلمين وقوتهم فأصروا على أخذ الجميع ـ جميع ما فتح صلاح الدين ـ إضافة إلى ثلاثمائة ألف دينار، لكن الملك الكامل أراد شيئًا، والله تعالى أراد الخير للمسلمين، فقد قويت نفوس المسلمين لقتال الإفرنج وهجموا على جيش الإفرنج الذي اغتر بعدده فلم يحمل معه مدداً ولا زاداً ظنًا منه أن البلاد ستفتح لهم ويغنمون ما شاؤوا، فدحرهم المسلمون وألجؤوهم

إلى مكان منخفض، ثم فتحوا عليهم ماء النيل فأوحلت الأرض، ولم يبق لهم مخرج إلا من جهة واحدة فسارع الكامل فنصب الجسور على النيل وقطع عليهم الطريق الوحيد ثم حدثت معركة بحرية أخرى أسر فيها المسلمون أكبر سفينة للفرنج مع سفن حراستها واسمها «مرمة» فأسقط في أيدي الفرنج ثم وصل مدد المسلمين ووصل الملك المعظم إلى دمياط من خلف القوم، وبدأ نشاب المسلمين ـ السهام ـ يأخذ من الفرنج من انفرد عن جماعته وكثر القتل فيهم، عند ذلك طلبوا الصلح على أن يرحلوا من دمياط ناجين بأنفسهم، فتسلم الملك الكامل عدة ملوك منهم رهائن كي يسلموا البلد وسلمت دمياط للمسلمين في ٩ رجب ٦١٨ هـ وخذل الله الأعداء بقليل من الصبر والشجاعة، وسلمت مدن المسلمين التي كانت ستعود للصليبيين بعد الجهاد والتحرير والدماء التي بذلت من لدن صلاح الدين.. وهذا درس لنا فيما يجرى الآن بفلسطين..

* * *

معارك جلال الدين مع الكرج
معركتي دوين وتفليس
شعبان ٦٢٢ ربيع الأول ٦٢٣هـ

آثرنا جمع هاتين المعركتين في عنوان واحد لأن الثانية امتداد للأولى، وأما الكرج فهم من النصارى المتعصبين وبلادهم بلاد الأرمن الحالية وكانوا قد تسلطوا على نواحي خلاط وأذربيجان وأران وأرزن ودربند حتى الجزيرة فقتلوا وسفكوا وسبوا وخربوا البلاد، في هذه الأثناء كان قد عاد جلال الدين بمن معه من الهند بعد فرارهم من التتار، وحشد الحشود وتوجه إلى خراسان، ثم قصد بلاد الكرج لما سمع من تسلطهم قال ابن الأثير: «فنظر الله تعالى إلى أهل هذه البلاد المساكين بعين الرحمة، فرحمهم ويسر لهم جلال الدين هذا ففعل بالكرج ما تراه وانتقم للإسلام والمسلمين منهم» وكانت عاصمة الكرج تفليس وتحكمهم امرأة أما قائد جيشها فكان «إيواني»، فتقدم جلال الدين وملك أذربيجان ثم آذنهم بالحرب فكان جوابهم: لقد قصدنا التتار الذين فعلوا بأبيك وهو أعظم منك ملكًا وأكثر عسكرًا وأخذوا بلادكم فلم نبال بهم وكان قصاراهم السلامة منا، ثم جمعوا ما يزيد عن سبعين ألف مقاتل والتقوا في معركة «دوين»، فكان القتال شديدًا وصبر الفريقان ثم أنزل الله نصره على المؤمنين وهزم الكرج وهربوا مخلفين وراءهم عشرين ألف قتيل، وكانت سياسة جلال الدين أن يقتل المقاتلة ولا يأخذ أسرى ليضعفهم بالقتل، ثم اختبأ «إيواني» في قلعة للكرج فحصرها جلال الدين وفرق بقية عسكره للإغارة والقتل والتخريب، ثم أتاه خبر من تبريز يوجب العودة إليها فعاد، كان هذا سنة ٦٢٢ هـ، وفي السنة التالية قصدهم جلال الدين في ربيع الأول ٦٢٣ هـ،

فحشدوا له جيشًا كبيرًا من اللان واللكز والقفجاق وغيرهم وأتوا في عدد لا يحصى كثرة، فلقيهم جلال الدين ونصب لهم الكمائن ليطبق عليهم من كل اتجاه، ثم التقوا واقتتلوا فولى الكرج منهزمين وأخذتهم السيوف من كل جانب بعد أن خرجت عليهم الكمائن ولم ينج إلا الشريد، وبعد أن نكل بهم وأطفأ جمرتهم، دنت ساعة استرداد تفليس التي احتلوها سنة ٦١٥ هـ فتقدم لها في ثلاثة آلاف فارس وأخفي كمائنه فلما رأوا قلة جيشه فتحوا الأبواب وقاتلوه فصبر لهم ساعة ثم انهزم فطمعوا به وتبعوه فخرجت لهم الكمائن وأبادتهم وأخذ قسم منهم الأبواب ودخلوا المدينة فحرروها، وتعد تفليس من أمنع البلاد وأقواها قال ابن الأثير بعد هذا الفتح: «لقد جل هذا الفتح وعظم موقعه في بلاد المسلمين، فإن الكرج كانوا قد استطالوا عليهم وفعلوا بهم ما أرادوا لايمنعهم مانع». إلى أن جاءهم من قهرهم واسترد منهم بلاد المسلمين.

***



(٨٠)
معركة المنصورة
٦٤٨هـ

قائد المسلمين: الملك المعظم توران شاه ابن الملك الصالح أيوب

من الإفرنج: ملك الفرنسيين لويس التاسع.

سببها: أن الإفرنج هاجموا ثغر دمياط وامتلكوه بسرعة فقد فر من فيه من جند كما فر السكان وأخلوا المكان للإفرنج، فلما علم الملك الصالح أيوب بذلك وكان في دمشق سارع بجيشه ليلاقي الإفرنج، وحشد جيشًا قبالتهم، وكان مريضًا، كما عاقب المتسببين في تسليم دمياط دون مقاومة، وحشد قواته في المنصورة لكن المرض اشتد عليه في أثناء المناوشات مع الإفرنج وصدهم عن التقدم، ثم توفي في ليلة النصف من شعبان سنة ٦٤٧ هـ فأخفت جاريته شجرة الدر موته ثم أعلمت بذلك أكابر الأمراء، فاجتمع رأيهم على تمليك ولده الملك المعظم، فلما وصل بايعوه جميعًا وتولى هو قتال الإفرنج وذلك في بداية سنة ٦٤٨ هـ، فجمع الأبطال من جيش أبيه وهاجم بهم الإفرنج وكانت وقعة حامية لقي فيها الإفرنج هزيمة منكرة ولم ينج منهم إلا الشريد فقتل منهم ثلاثين ألفًا، وقيل مائة ألف وأُسر ملكهم وأخوه، وقد كان للمماليك دور كبير في هذا النصر، لكنهم تآمروا على الملك المعظم فقتلوه ولما يمض على مبايعته شهران.





(٨١)

معركة عين جالوت

٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ

قائد جيش المسلمين: السلطان المظفر قطز، يساعده بيبرس البندقداري

قائد جيش المغول: كتبغانوين، وهو من أشهر قادة هولاكو

لما فرغ التتار من بغداد سنة ٦٥٦ هـ وقتلوا من أهلها ما يقارب المليون نسمة وخربوا وأحرقوا ما شاء لهم أن يفعلوا، توجهوا إلى بلاد الشام عن طريق الفرات ودخلوا حلب وغدروا بأهلها كما دخلوا دمشق دون مقاومة، ثم أرسلوا إلى حكام مصر يطلبون منهم تسليم البلاد، ووصلوا حتى غزة، فكان رد الملك المظفر عليهم أن قتل رسلهم وجمع جنده وتوجهوا للشام لقتال التتار، وعلم «كتبغا» وكان في البقاع ـ بلبنان ـ فسار بجنده لقتال قطز ولم يستشر هولاكو الموجود في حلب ـ آنذاك ـ والتقى الجمعان في «عين جالوت» بفلسطين في الخامس والعشرين من رمضان بعد ظهر يوم الجمعة، فقال المظفر: «في هذا الوقت بعد الزوال تهب رياح النصر ويدعو لنا الخطباء على المنابر» ثم أمر بالهجوم وباشر بيبرس قائد الفرسان القتال بنفسه فنكل بالعدو ولما هزمهم الله تابع فلولهم قريبًا من حلب حتى قطع دابرهم، وبرز في هذا القتال أيضًا ملك حماة المنصور الذي كان مع جيشه في طليعة جيش قطز فقاتل قتال الأبطال، وتحررت بلاد الشام من التتار بعد هذه الموقعة، وهي أول هزيمة قاسية لهم بعد أن دخلوا بلاد الإسلام وشرعوا يخربونها كيف شاؤوا، وقدر عدد قتلاهم بأكثر من عشرين ألف قتيل منهم كتبغا نفسه. وهرب التتار من المدن التي احتلوها إثر سماع الخبر فتبعهم السكان يقتلونهم

ويستردون الأموال منهم ويروى أن الدائرة كادت أول الأمر أن تكون على المسلمين، ولما رأى ذلك السلطان قطز صعد على صخرة وخلع خوزته وصاح: واإسلاماه ثم ركب جواده وهجم على الأعداء كالأسد الضاري يضرب بهم ذات اليمين وذات الشمال وخلفه جنده يقتحمون مثله ويفلقون هامات المغول ثم قتل جواده، فأسرع إليه أحد الأمراء ونزل عن فرسه وقدمها له، فأبى السلطان أن يفعل ذلك وقال له: اركب وقاتل فما كنت لأحرم المسلمين في هذا الموقف من نفعك، ولم يزل صامداً يقاتل حتى جاءه أحد غلمانه بفرس فركبها، فقال له أحد الأمراء: أيها السلطان لِمَ لَمْ تركب فرس فلان؟ فلو أن بعض الأعداء رأوك لقتلوك وهلك الإسلام بسببك.

فقال السلطان: أما أنا فكنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه، لقد قتل فلان وفلان وفلان حتى ذكر خلقًا كثيراً من الملوك فأقام الله للإسلام من يحفظه غيرهم ولم يضع الإسلام، فمن أنا حتى يضيع الإسلام بقتلي؟! وكان هذا ضربًا من قوة الإيمان والتواضع أيضًا الذي كان يتحلى به السلطان المظفر رحمه الله.

* * *

(٨٢)
وقعة البالستين
الجمعة ١٠ ذو القعدة ٦٧٥ هـ

قائد جيش المسلمين: ركن الدين بيبرس (الملك الظاهر)

ومن التتار القائد تناون.

حاول التتار مرارًا العودة إلى بلاد الشام من الشمال، فأصيبوا في البيرة ثم عاودا مرة ثانية ومعهم عددًا كبيرًا من جيش الروم يقوده الرواناه - الوزير الأكبر - وعدد التتار فيه سوى الروم أحد عشر ألف مقاتل، وكان بيبرس في حلب يرقب تحركاته فتوجه نحوهم وكانوا قريبًا من قيسارية - قيصريه - ولما أطل جيش بيبرس وجدهم يتجمعون في سهل البالستين، وتراءى الجيشان فهجم التتار على حملة سناجق السلطان - حملة الأعلام - وشقوا الجيش نصفين فتقدم السلطان بنفسه ودعم حملة السناجق وقاتل التتار ثم أطبق بقية الجيش عليهم وعلى أعوانهم ودارت معركة عنيفة ولما يئس التتار من النصر ترجلوا وتثبتوا بالأرض فقاتلهم المسلمون حتى أفنوهم مع قائدهم كما لاذ الرواناه بالفرار متوجهًا إلى قيسارية فتبعه بيبرس فأخلى المدينة وهرب باتجاه الروم ودخل السلطان قيسارية وغنم ما فيها ثم عاد إلى حلب، وقد أثرت هذه الموقعة على التتار وجاء ملكهم «أبغا» إلى مكان المعركة فهاله جثث القتلى من التتار، وعلم أنه أمام خصم شديد، فما عاد يجسر على الاقتراب من الشام، لقد كان السلطان الظاهر بيبرس كثير الغزوات والفتوحات ويعمل على جبهتين الأولى ضد الصليبيين فيغزوهم ويفتح الحصون والقلاع والمدن مثل انطاكية وحصن الأكراد كما يقاتل أيضًا التتار.



(٨٣)

موقعة حمص

١٤ رجب ٦٨٠ هـ

قائد جيش المسلمين السلطان المنصور قلاوون وعدد جيشه ما بين ٥٠ - ٦٠ ألف مقاتل

قائد جيش المغول: منكوتمر بن هولاكو وعدد جيشه أكثر من مائة ألف.

تعد هذه المعركة، من المعارك الحاسمة وتبين طمع التتار المستمر ببلاد الشام خصوصًا بعد وفاة الظاهر بيبرس، فقد تفرقت كلمة المسلمين إلى حد ظاهر ولم تعد الصلة القوية قائمة بين مصر والشام، كما كانت منذ صلاح الدين. والسبب المباشر لهذه المعركة أن الأمير سنقر الأشقر وكان من المقدمين في عهد بيبرس وله أطماع في الحكم فقام بالاستيلاء على دمشق ومعظم بلاد الشام وفصلها عن مصر، فأرسل السلطان المنصور قلاوون جيشًا لحربه واستردادها، وبعد معارك دامية هرب سنقر الأشقر والتجأ إلى إحدى القلاع عند الساحل، ويقال: إنه كاتب ملك المغول وأطمعه في بلاد الشام فجهز «منكوتمر» هذا الجيش الضخم وأتى به لاحتلال بلاد الشام وانضم إليه أخوه «أبغا» وتقدموا إلى حلب فقتلوا ونهبوا ما شاء لهم فعله، ثم تقدموا نحو حماة ثم حمص، وفي هذه الأثناء جمع السلطان قلاوون جيشًا وكاتب أمراءه أن يوافوه، كما كاتب سنقر الأشقر ورغبه في الجهاد والتوبة، وتوافت الجيوش فاجتمعت في حمص، والتقى الجمعان شمال حمص ما بين قبر خالد بن الوليد وقرية الرستن. وقد يكون الموقع بالضبط قرية «تلبيسة»، وعند طلوع الشمس دارت معركة حامية بين الجيشين وحمي الوطيس في معركة لم



تشهد الشام مثلها من عصور وتغلب التتار أول النهار وكسروا ميسرة المسلمين، كما اضطربت الميمنة، لكن القلب الذي فيه السلطان كان ثابتًا. وذلك أن السلطان وطد نفسه على الشهادة فثبت كالجبال غير وجل ولا هياب، وقد انهزم كثير من عساكر المسلمين فتبعهم التتار حتى بحيرة حمص ـ قطينة ـ وكاد الجيش يفر ومع ذلك فالسلطان ثابت وحوله الرايات تبدي صموده والأعلام مرتفعة لم تهو بعد، ولما رأى من في الميسرة والميمنة ثبات السلطان جدوا في القتال وبذلوا أقوى طاقتهم فتقدموا وحملوا على التتار حملات صادقة حملة إثر حملة، حتى كسر الله التتار وتقدم أحد الأمراء نحو «منكوتمر» فطعنه وقتل دونه فجرح منكوتمر، وشارك عيسى بن مهنا أمير البدو في القتال وقصد بمن معه جيش التتار فزعزعوه، ثم كانت الدائرة آخر النهار على التتار فولوا الأدبار وقتل منهم خلق عظيم وتابعتهم الجيوش الإسلامية فافترقوا في طريقين الأول شرقًا في البادية، وقد تخطفتهم المسالح وقضى عليهم التيه والعطش والثاني نحو حلب، لقد كان نصرًا عظيمًا، مات لمرآه «أبغا» مهمومًا كماخرج منكوتمر بجراح بليغة.

* * *

(٨٤)
فتح عكا ونهاية الصليبيين
١٧ جمادي الآخرة سنة ٦٩١ هـ

قائد المسلمين: السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون

سببها: أن المسلمين دأبوا في جهاد الصليبيين لإخراجهم من الشام، فقد جمع السلطان الأشرف خليل جيشه وتوجه نحو عكا من مصر والشام وأحضر معه أدوات الحصار من المجانيق العظيمة، وجمع حول عكا من آلات الحصار ما لم يجمعه على مدينة أخرى، فقد كان هذا السلطان مغرمًا بفتح الحصون والقلاع، فكانت بداية الحصار في أوائل جمادى الأولى، وحاول الإفرنج فك الحصار من جهة البحر، فمراكبهم كانت ما تزال تجوب في البحر وترمي الأحجار والنشاب على المسلمين، وكذلك فعل أهل عكا من فوق الأسوار، وكان أقوى ما شاهده الجيش الإسلامي سفينة عظيمة (بطسة) ترمي عليهم بالمنجنيق من بعيد، فكانوا في شدة منها كبيرة فكفاهم الله شرها بالرياح العاتية فكسرت المنجنيق ولم يعد يعمل، وخرج الإفرنج ليلاً بغارات على عسكر المسلمين ووصلوا في بعض غاراتهم إلى خيام المسلمين لكن المسلمين صدوهم وقتلوا كثيرًا منهم، وشدد المسلمون في الحصار والرمي على عكا وكان الزحف العظيم في ١٧ جمادى الأولى وطلع المسلمون على الأسوار مع طلوع الشمس وركزوا الأعلام عليها وقاتلوا الفرنج من مكان إلى مكان حتى قتلوا أعدادًا كبيرة منهم، ولما رأوا أن مقاومتهم انهارت ولم تعد تجد ركبوا سفن التجار وهربوا. فدخل المسلمون عكا وحازوا ما فيها وكان نصرًا عظيمًا لأنها آخر أكبر معقل للصليبيين بالشام، يقول «أبو الفداء» صاحب



«المختصر في تاريخ البشر» وكان حاضراً المعركة مع جيش حماة، وهو في ذلك الوقت أمير عشرة: «ومن عجائب الاتفاق أن الإفرنج استولوا على عكا وأخذوها من صلاح الدين ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة (٥٨٧ هـ) واستولوا على من بها من المسلمين وقتلوهم فقدر الله عز وجل في سابق علمه أنها تفتح في هذه السنة في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة (٦٩٠ هـ).

بينما مر معنا قبل أسطر رواية ابن كثير في البداية والنهاية أنها فتحت في سابع عشر جمادى الأولى.. فرواية صاحب المختصر أثبت لحضوره الموقعة والمشاركة فيها.. أما ابن كثير فكانت ولادته بعد الموقعة.

قال: «فاستوثق الساحل للمسلمين وتنظف من الكافرين وقطع الله دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين».

وبعد فتح عكا هرب الصليبيون من صيدا وبيروت وصور وطرطوس وتسلمها السلطان بغير قتال وهكذا أسدل الستار على الحروب الصليبية على يد هذا السلطان سنة ٦٩٠ هـ.

* * *



(٨٥)
معركة شقحب
في ٢ رمضان سنة ٧٠٢ هـ

قائد المعركة من المسلمين: السلطان الناصر محمد بن قلاوون

قائد التتار: قطلو شاه نائب الملك قازان ومعه جوبان

سببها: الطمع المستمر للتتار في بلاد الشام، وكان الناس في الشام في خوف منهم ورعب، فقد سمعوا أنهم عبروا الفرات وتوجهوا للشام في سنة ٧٠١ هـ، فانقلبت المدن بعضها على بعض والناس يبغون الفرار ومنهم من أرسل أهله إلى مصر وغلت الأرزاق ونودي للجهاد؛ من كانت نيته الجهاد فليلحق بالجيش فقد اقترب وصول التتار، كل ذلك لعلم الناس باختلاف الأمراء في السلطة وكثرة ما حدث بينهم من قتل بسبب الوثوب إلى السلطة، فكان هذا دأبهم وشاغلهم عن الجهاد، أما الناس فهم في حماس وقوة ولكن ماذا تنفع قوتهم بلا قائد ومنظم لهم؟! وقام شيخ الإسلام ابن تيمية بدور كبير في الحشد لهذه المعركة وبث روح الحماس في الجند والناس، فقد اجتمع بنائب السلطان في دمشق وشجعه على الصمود ولقاء العدو وأن الشعب كله من ورائه، كما اجتمع بابن مهنا أمير العرب الذي أبلى في موقعة حمص بلاء حسنًا وشجعه على الانضمام لجيش المسلمين والقتال إلى جانبهم، وكان قبل ذلك في مصر فاجتمع بالسلطان والأمراء وطلب منهم القدوم إلى الشام لدفع التتار، وأصبحت منطقة دمشق منطقة تجمع للأجناد فكل حاكم مدينة رحل بجنده إليها كأمير حلب وحماة وحمص، والتقى بهم أيضًا ابن تيمية وأخذ عليهم العهود والمواثيق بالصبر والقتال، وأن هذه المعركة مصيرية



وأرسل سلطان مصر قسمًا من الجيش مع القائد بيبرس الجاشنكير واجتمع مع جيوش الشام بظاهر دمشق، واقترب جيش التتار والناس في ترقب وغليان وكلهم لهفة لوصول السلطان ببقية الجيش، ثم تكامل جيش المسلمين وعسكر في جنوب شرقي دمشق، ووصل جيش التتار يزحف نحو دمشق لايرى أوله من آخره، فطاف بدمشق التي غلقت الأبواب فلم يقف لأخذها وإنما اتجه نحو الجيش الإسلامي فإذا ربح المعركة فلن تستعصي عليه دمشق، والتقى الجمعان عصر السبت في الثاني من رمضان سنة ٧٠٢ هـ قرب شقحب[١] ودارت معركة رهيبة وركز التتار على ميمنة المسلمين فحطموها واستشهد أناس كثيرون بينهم قادة وأمراء وصمدت الميسرة والقلب ثم اندفعوا نحو التتار فوقعت الهزيمة في صفوفهم وهم لا يلوون على شيء، وحال الليل بين الفريقين وارتفع التتار تحت جنح الظلام مع «جوبان» إلى تل هناك، وعندما أسفر الصبح شاهد التتار كثرة المسلمين فانحدروا من التل يبتدرون الهروب فأخذتهم سيوف المسلمين وكانت مقتلة عظيمة منهم وشردوا في كل اتجاه وتبعهم جند المسلمين إلى الصحراء حتى «القريتين» فأفنوهم ومن شرد، منهم وصل إلى الفرات وكان النهر، في ازدياد لأن الفصل ربيع فغرق من أراد العبور، وقتل بدو المنطقة من شاهدوه وهكذا تفرقوا بين مقتول في المعركة وهالك غرقًا أو في الصحراء، ولم تقم لهم بعدها قائمة فقد مات ملكهم «قازان» ألمًا وحسرة عند سماعه بهذه الهزيمة المنكرة.

وقد كان لمشاركة الإمام ابن تيمية رحمه الله في هذه المعركة أثر كبير في النصر، فكان يحث على القتال ويباشر القتال بنفسه ومعه تلاميذه وأنصاره. وقد أرسل نائب السلطان في دمشق جمال الدين أقوشى رسالة من أرض المعركة بعد تمام النصر يطمئن فيها أهل دمشق الذين كانوا في وجل وخوف، لكنهم ما انقطعوا طيلة هذه الأيام من الدعاء والابتهال إلى الله بنصر المسلمين خصوصًا في يوم الجمعة أول رمضان إلى أن وردت هذه الرسالة: «إن الوقعة كانت من العصر يوم السبت إلى الساعة الثانية من يوم الأحد وأن السيف كان يعمل في رقاب التتار ليلاً ونهارًا وأنهم هربوا واعتصموا بالجبال والتلال وأنه لم يسلم منهم إلا القليل». فاستقرت أحوال الناس في دمشق بعد سماعهم هذه الرسالة وحمدوا الله على هذا النصر المبين.

---

(١) شقحب: قرب بلدة الكسوة اليوم.

(٨٦)
معركة المرّية
وتسمى (بركة الصقر) سنة ٧٠٩ هـ

قائد المسلمين: أبو مدين شعيب قائد الجيش البري وأبو الحسن الرنداحي قائد الأسطول.

قائد النصارى: خايمي الثانى ملك أراجوان.

سببها: أن ملك أراجون خايمي الثاني أراد القضاء على ممالك المسلمين المتبقية بالأندلس فقصد مدينة المرية ـ مدينة بحرية تقع إلى الجنوب الشرقي من غرناطة ـ وحشد أكثر من مائة ألف مقاتل إضافة إلى ثلاثمائة سفينة، ونزل عند بركة الصقر، ثم دار يتفحص الأسوار ليحدد مكان الهجوم، وفي الحال أمر أبو مدين بإزالة كل المباني خارج الأسوار ليعد ساحة مكشوفة حول المدينة، ثم هوجمت المدينة فصمد أهلها ودافعوا عنها واستماتوا في ذلك، وبالمقابل تكالب الإفرنج عليها فلم يفلحوا، وفي اليوم التالي وصل مدد إلى المرية في مائة وخمسين فارسًا، فاستطاعوا اختراق حصار الأعداء بعد معركة حامية ودخلوا البلد سالمين لم يقتل منهم أحد، ثم أحدق النصارى بالبلد من كل جانب، وكان الرعب أولاً قد سيطر على أهل المرية لكن بعد المناوشات ثبتت قلوبهم ووطنوها على القتال، فأصبحوا كالأسود الضواري ولم يعبأوا بهذا الحشد وصاروا هم المبادرين إلى الحرب وإذكاء القتال، وفي اليوم الثامن من نزول الجيش أقبل الطاغية براياته وجنوده من قبل باب بجاية، ودافع المسلمون هناك بأشد المدافعة فانسحب، ثم أقبل جيش للمسلمين من جهة غرناطة لفك الحصار فقاتلهم الطاغية فعادوا، وفي

هذه الأثناء خرج أهل المرية فنهبوا مستودعات النصارى وعادوا سالمين، ثم ركب الإفرنج فارسهم وراجلهم وأحدقوا بالبلد ودفعوا أبراجًا على عجلات ليصعدوا منها إلى أسوار المرية، فدافع المسلمون وثبتوا فوق الأسوار وأحرقوا الأبراج وكبدوا المهاجمين خسائر فادحة، وعاد جيش غرناطة لمهاجمة الطاغية وفك الحصار، وشنوا هجمات على أطراف الجيش فأثرت فيه، كما أعدوا الكمائن لقوافل التموين والإمدادات فكانوا يوقعون بها ويغنمونها، ثم عاد جيش غرناطة بقيادة عثمان بن أبي العلاء، فالتقى مع جيش الطاغية فكانت الدائرة على النصارى وقتل منهم خلق كثير، لكنهم لم يفكوا الحصار، واحتال الطاغية فأرسل فرقة ليلاً لتعود نهارًا بلباس المسلمين فيفتح لها أهل المرية الأبواب ظنًا منهم أنها مدد لهم، وركب جيش الإفرنج متظاهرًا بقتالهم تاركًا الخيام دون حراسة، وقد أعد الكمائن اللازمة وعمل على استدراج أهل المرية، وفعلاً خرجوا لكنهم قبل الوصول إلى الكمائن عدلوا إلى الخيام التي على الجبل في الناحية الأخرى دون شعور منهم، لكنها إرادة الله، فظن الإفرنج أن المسلمين اكتشفوا الكمائن وفطنوا للمكيدة فخرج الإفرنج من كمائنهم، فرآهم المسلمون ولاذوا بالفرار ودخلوا البلدة وتصدّى حملة السهام لرد المعتدين وحماية المسلمين واستنقذوا من تأخر منهم بالحبال والسلالم، وبطلت حيلة الإفرنج، ونوع الإفرنج في الأسباب ليملكوا البلد فأخفقوا، وقاتلوا من جهة البحر فأخفقوا أيضًا، وعاد جيش غرناطة لمواصلة هجومه على أطراف الجيش، وكلما التحم جيش غرناطة مع الإفرنج يخرج أهل المرية لنهب الخيام، وفي هذه المرة أحرقوها، فترك النصارى القتال وعادوا لإطفاء الحرائق وحاول النصارى أخذ البلد من جهة الجبل، ولم يكن على السور سوى رجل واحد فاستصرخ الناس فهبوا إليه وفي فترة وجيزة امتلأت الأسوار بالمدافعين وخرجت طائفة من المسلمين فقلبوا السلالم وقتلوا من كان عليها ثم عادوا للبلدة، كما أحدثت المجانيق ثلمة في السور ودار عليها قتال عنيف لكن المسلمين لم يمكنوهم من دخول البلدة، وبعد خمسة شهور رحل الطاغية بعد أن فقد تسعين ألفًا من جنوده وكثيرًا من الخسائر المادية الأخرى. . هذه صورة رائعة من استبسال المسلمين وتوطيد عزمهم على الشهادة فقد بذلوا جهودهم في دفع العدو، وفي قطع خطوط إمداده ومناوشته رغم قلة عدد المسلمين فلم يكن جيش غرناطة يتعدى الخمسة آلاف، ومع ذلك لم يهنوا ولم يستسلموا وكلل الله جهودهم بالنجاح وهذا درس في الصبر والثبات.



(٨٧)
معركة غرناطة
٢٠ ربيع الأول ٧١٩ هـ

قائد جيش المسلمين: الغالب بالله أبو الوليد ابن الأحمر، يساعده شيخ الغزاة عثمان(١) بن أبى العلاء.

قائد النصارى: دون بطرة ومعه خمسة وعشرون ملكاً من كافة مقاطعات النصارى.

سببها: أن النصارى طمعوا بالمسلمين الذين كانوا في غاية الضعف، وعزموا على استئصالهم من الأندلس نهائيًا، فزار دون بطره البابا في روما الذي باركه من أجل هذا، فحشد جمعًا عظيمًا من بلاد أسبانيا كلها، وعلم المسلمون الذين انحصروا في مقاطعة غرناطة بهذا الحشد الكبير فطلبوا المدد من المغرب من حاكم فاس المريني، فلم يلب طلبهم، فاعتصموا بالله وصمموا على المقاومة، وقدم العدو بجحافله إلى غرناطة يحمل معه آلات الحصار تساند قواته البرية قوات بحرية للسيطرة على ثغور غرناطة وقطع الإمدادات من طريق البحر، فخرج المسلمون إليهم بقيادة عثمان بن أبى العلاء واختار خمسة آلاف فارس من الشجعان، فلما شاهدهم الإفرنج عجبوا من إقدامهم مع قلتهم لحرب تلك الجيوش، والتقى الفريقان ودارت معركة حامية عدت من المعجزات، لقد كتب الله النصر لهذه العصابة المؤمنة التي ألقت بنفسها في المعركة متوكلة على الله بعد أن انقطع مدد

---

(١) أما شيخ الغزاة عثمان بن أبى العلاء فقد توفي سنة ٧٣٠ هـ عن عمر يناهز الثمانية والثمانين أمضى جلها في الجهاد وبلغت عدد غزواته ٧٣٣ غزوة. رحمه الله.

(٢) المصدر نفح الطيب ص ٤٥٠ ج ١.



الأرض، فلم يخذلهم ربهم لأنهم قدموا ما عندهم «وما النصر إلا من عند الله» لقد فر هذا الجيش الجرار والمسلمون في إثره يقتلون ويأسرون لمدة ثلاثة أيام، وخرج أهل غرناطة يساعدون جيشهم ويحملون الغنائم ويقيدون الأسرى، وكان من نتائج هذه المعركة مقتل قائد الأسبان دون بطره، وأسرت زوجته وأولاده أما عدد القتلى فكان أكثر من خمسين ألفًا كما فني مثل هذا العدد في الأودية والشعاب، أما قتلى المسلمين فكان ثلاثة عشر فارسًا.. فانظر إلى حكمة الله ورحمته بالمسلمين لما طوقهم النصارى وأصبحوا قلة، وكان من نتيجة هذه المعركة أيضًا استرداد جبل الفتح وما حوله من المدن.

❊ ❊ ❊



(٨٨)

معركة الجزيرة الخضراء البحرية في ربيع ٧٤٠هـ

سببها: الصراع على امتلاك مضيق جبل طارق بين المغرب والأسبان، فأعد كل فريق العدة من السفن للسيطرة على هذا الممر الحيوي، وكان سلطان المغرب: أبو الحسن المريني، الذي استعان بالحفصيين في تونس، أما ملك قشتاله الطامع بالمضيق فقد استعان بملك أراجون، وهكذا فإن أسطول المسلمين قد تجمع في سبتة، وبلغ مائة سفينة على الرواية العربية، وعلى الرواية الغربية بلغ مائتين وخمسين سفينة.

منهم ستة عشرة سفينة مدد من تونس بقيادة زيد بن فرحون. وبدأت المعركة في ربيع سنة ٧٤٠ هـ عندما حاول القائد الأراجواني جلبرت غريليس عبور المضيق بسفنه والاتصال بالقائد القشتالي في مياه إشبيلية، أي عبوره من الشرق إلى الغرب، فتصدى له الأسطول المغربي ليحول دون هذا الاتصال ودارت معركة عنيفة في مياه الجزيرة الخضراء انتهت بغرق معظم الأسطول الأراجواني كما قتل قائده فانسحبت فلوله إلى برشلونة بقيادة نائب القائد المقتول، وبعد هذا التقى الأسطول المغربي بالأسطول القشتالي فمني بهزيمة ساحقة وقتل قائده ألونسو جوفري أيضًا واستولى المسلمون على بعض سفنه. وبهذا النصر الباهر أصبح أبو الحسن المريني سلطان المغرب سيدًا بلا منازع على مضيق جبل طارق.

❋ ❋ ❋



(٨٩)

معركة قوص أوه ـ السهل الكبير ـ لوسوفو

سنة ٧٩١ هـ ـ سنة ١٣٨٩م

قائد المعركة من المسلمين: السلطان مراد الأول.

قائد جيش الصرب: لازار ملك الصرب.

سببها: أن الصرب استغلوا انشغال العثمانيين في إخضاع بعض الأمراء المستقلين في الأناضول، ومحاولتهم الاستقلال نهائيًا عن سلطة الدولة العثمانية، فعمل الصرب على إشعال الحرب ضد الدولة العثمانية، وفازوا أول الأمر لكن السلطان مراد لقنهم درسًا قاسيًا، فقهر أولاً حليفهم أمير البلغار، واستولى على معظم بلاده وحصره في مدينة نيكوبلي، ثم استسلم ووهبه نصف بلاده ليحكمها تحت حماية العثمانيين، وبهذا فقد الصرب مناصرة حليفهم أمير البلغار، فاتجه الملك لازار إلى محالفة الألبان، لكن السلطان مراد قطع عليه الطريق في الانضمام إليهم، والتقى مع لازار في معركة حامية في السهل الكبير «قوص أوه» واستمرت المعارك أيامًا تطايرت فيها الرؤوس وزهقت الأنفس، وصمد الصرب أمام التفوق العثماني ثم انحاز صهر الملك فوك برانكوفتش إلى الجيش العثماني ومعه عشرة آلاف فارس فدارت الدائرة على الصرب وجرح الملك لازار ثم أسر وقتل[١] ومني الصرب بخسائر فادحة في الأرواح، وفقدوا بعد هذه المعركة كل مقاومة وخضعت بلادهم للحكم العثماني، وفي هذه المعركة أيضًا قتل السلطان العثماني مراد الأول، فقد كان يتفقد ساحة المعركة مارًا بين القتلى، فنهض من بين القتلى جندي صربي وطعنه فجأة بخنجر حاد أودى بحياته.

---

(١) قتله با يزيد بن مراد انتقامًا لمقتل أبيه.



(٩٠)

معركة نيوكوبلي

٢٣ ذو العقدة ٧٩٨ هـ

قائد جيش المسلمين: السلطان بايزيد الأول سلطان العثمانيين.

قائد الجيوش الصليبية المتحالفة: ملك المجر سجسموند يساعده الكونت دي نيفر.

سببها: أن ملك المجر خاف من ضم العثمانيين لبلاد بلغاريا فاستنجد بالبابا، فأعلن البابا عن قيام حرب مقدسة ضد المسلمين، فاجتمعت الجيوش الصليبية من مقاطعات أوربا الغربية، وشارك عدد كبير من الأشراف وفرسان القديس يوحنا وبافاريا وأستيريا ـ النمسا ـ واجتمع للصليبيين جيش كبير وساروا به نحو مدينة نيوكوبلي، فاجتازوا نهر الدانوب وعسكروا حولها لمحاصرتها، فسار إليهم السلطان بايزيد الأول ومعه مائتا ألف مقاتل إضافة إلى جيش من الصرب بقيادة أسطفان بن لازار وفي يوم ٢٣ من ذي القعدة ٧٩٨ هـ نشب قتال عنيف بين الفريقين فانتصر الجيش العثماني أروع انتصار، وأسر كثير من أشراف فرنسا منهم الكونت دي نيفر، وقتل أغلبهم وكان نصراً مؤزراً على هذا التجمع الصليبي، ثم أطلق السلطان سراح دي نيفر لقاء مبلغ من المال والتزم ألا يحارب السلطان ثانية، لكن السلطان لفرط شجاعته أعفاه من هذا اليمين وقال: «أحلك من هذا اليمين ويمكنك محاربتي إذ لاشيء أحب إلي من محاربة جميع نصارى أوربا والانتصار عليهم.



(٩١)

فتح القسطنطينية

٨٥٧هـ-١٤٥٣م

قائد المسلمين: السلطان محمد الثاني (الفاتح).

قائد النصارى: الملك قسطنطين.

تعد من أعظم الفتوحات في التاريخ، هذه المدينة الحصينة التي صمدت مئات السنين أمام كل الفاتحين، وشهدت مئات المدن والعواصم تهوي وتندثر وهي صامدة ممتنعة بقوة حصونها وأسوارها والمدافعين عنها.

سبب الفتح: أن الدولة العثمانية كانت قد توسعت غربًا باتجاه أوربا وامتدت في البلقان وصربيا متجاوزة القسطنطينية، ورأى محمد الفاتح أنه لا ينبغي ترك هذه المدينة وراء ظهره فتنقض على دولته متى تشاء، لذلك عزلها بعد أن استكمل فتوحاته في آسيا وأوربا فأرسل إلى ملكها قسطنطين ليسلمه البلد طوعًا وتعهد له بعدم مس حرية الأهالي أو أملاكهم، ويعطيه مقابل ذلك جزيرة مورة، فلم يقبل قسطنطين وآثر الموت على تسليم البلد، لذلك شدد السلطان العثماني الحصار على القسطنطينية واستخدم المدافع الثقيلة لدك الأسوار، كما بنى عددًا من القلاع على مضيق البوسفور لإحكام الحصار ومنع المدد عنها، كما أنزل في فترة الحصار ومحاولات الفتح سفنًا في القرن الذهبي خلف السلاسل التي تسد مدخله حيث سحبها على ألواح خشبية مطلية بالشحم بلغت سبعين سفينة، سحبت في ليلة واحدة، وهبت أوربا كلها تدافع عن القسطنطينية فتمكن أسطول «جنوه» بقيادة جوستنياني من فك الحصار البحري فدخل الميناء وقدم العون للمدينة، ومع ذلك

فالسلطان مصر على الفتح وينوع في استخدام وسائل الحصار، فقد بذل كل جهده وعصارة فكره وفنه الحربي لدخول المدينة، واستمر الحصار من أوائل نيسان إبريل ١٤٥٣ م إلى نهاية آيار، ففى ٢٩ آيار - مايو - استعد مائة وخمسون ألف مقاتل لصعود الأسوار وأعطيت لهم الأوامر بالهجوم، فكان هجومًا فدائيًا لم يشهد التاريخ مثله، فكانت الأفواج تتسابق لتسلق الأسوار وكلما أبيد فوج جاء إثره فوج حتى تمكن المسلمون من الصعود للأسوار وقتال جند الروم، ودارت المعارك فوق الأسوار وفي ساحات البلدة، فقتل قسطنطين، وعند الظهر استسلمت البلد وانتهت المقاومة وفتحت الأبواب للسلطان، وأعلن إيقاف القتال كما منع السلب والنهب، وساد الأمان وعامل ما تبقى من أهلها معاملة حسنة وقرر تسميتها إسلام بول - مدينة الإسلام - وترك لسكانها حرية العبادة فعاد كثير منهم بعد أن فروا واطمأنوا في ظل الحكم الجديد. كان عدد جيش المسلمين الذى حشد لهذا الفتح ربع مليون جندي. وانتهى بفتحها تاريخ العصور الوسطى وبدأ التاريخ الحديث.

***



(٩٢)
معركة بلغراد
٢٥ رمضان ٩٢٧ هـ

قائد المسلمين: السلطان العثماني سليمان الأول القانوني؛ يساعده الوزير بير محمد باشا.

كان فتح مدينة بلغراد مهمًا للعثمانيين ويعد نقطة تحول مهمة في الفتوحات العثمانية في أوربا، حيث ثبت الإسلام هناك وانطلق إلى ماحولها..

سبب الفتح: أن ملك المجر قتل سفير السلطان عندما طالبه بدفع الجزية. فغضب السلطان وجهز الجيوش وكل ما يلزم من المؤونة والذخيرة لمحاربة المجر وسار بنفسه في مقدمة الجيش، وأرسل أحد مشاهير قواده واسمه أحمد باشا لمحاصرة مدينة شابتس القريبة من بلغراد ففتحها في ٢٠ شعبان ٩٢٧ هـ فوصلها السلطان في اليوم التالي ثم تقدم بهذه الجيوش لمساعدة وزيره بير محمد باشا على تضييق الحصار المضروب على بلغراد، وبدأت الحرب ودافع المجريون عنها لكنهم تكبدوا خسائر كبيرة في الأرواح وفي يوم ٢٥ رمضان ٩٢٧ استسلمت المدينة وقلعتها الحصينة، فدخلها السلطان وصلى في كنيستها صلاة الجمعة ثم حولها إلى مسجد، وتمكن بعد ذلك العثمانيون من التقدم لفتح بلاد ما وراء نهر الدانوب.





(٩٣)
فتح جزيرة رودس

هذه الجزيرة المهمة بالنسبة لتركيا، حاول السلطان محمد الفاتح فتحها لكنه لم يستطع فقد هبت معظم دول أوربا لمساندة قوات رودس، وفي هذه السنة قصدها السلطان سليمان القانوني، لأنها أصبحت تسبب الضيق لسفن المسلمين في البحر المتوسط واستفحل شرها ولجأ إليها كل المعادين للإسلام وعلى رأسهم فرسان الرهبانية، وهم من بقايا وأحفاد من فروا من عكا يوم فتحها الملك الأشرف خليل، فأرسل السلطان سليمان إلى أهلها يطلب منهم تسليمها سلمًا، فأبوا فحاصرهم بحرًا وأنزل جيشه إلى البر ومعه المدافع وآلات الحصار، فقاوم أهل رودس بشدة وعنف[١]، فنزل السلطان وتقدم أمام جنوده يحثهم على فتح البلد واقتحامها ودارت رحى معركة عنيفة اضطر القائد الصليبي فيليه دي ليل إلى الاستسلام، فخرج من تبقى منهم سالمًا بروحه فركبوا مراكبهم وأخلوا الجزيرة خلال اثني عشر يومًا واتجهوا إلى مالطة، وعادوا فيها إلى سيرتهم الأولى في القرصنة. كان الاستسلام في ٢ صفر ٩٢٩ هـ.

* * *

(١) ويروى أن النساء الإفرنجيات كن يساعدن الرجال في الدفاع عن الأسوار برمي الأحجار وصب الزيت الغالي على الجند.

(٩٤)

معركة موهاكز

٢١ ذو القعدة سنة ٩٣٢ هـ

قائد جيش المسلمين: السلطان سليمان القانوني، يرافقه ثلاثة من وزرائه.

قائد المجر: السلطان لويس.

حشد السلطان سليمان جيشًا قوامه مائة ألف مقاتل ومدفعية قوامها ٣٠٠ مدفع و ٨٠٠ سفينة نهرية وسلك الجيش نهر (الطونة) الدانوب وفتح في طريقه عدة قلاع ثم وصل إلى وادي موهاكز (موهاكس) وفي ٢١ ذي القعدة اصطف الجيش العثماني ثلاثة صفوف ومن ورائهم المدفعية وفرقة الأنكشارية، فهجم فرسان المجر المشهورون بالبسالة تحت قيادة لويس على صفوف العثمانيين، فتقهقر العثمانيون للخلف وأصبح الفرسان في مواجهة المدفعية، فأمر السلطان سليمان بإطلاق النار، وأطلقت المدافع بمهارة فائقة وطلقات متتابعة أوقعت الرعب في صفوف المجر فتراجعوا مكلومين وتبعهم الجيش العثماني فقتل أغلب الفرسان كما قتل ملكهم لويس ولم يعثر على جثته وكانت هذه المعركة حاسمة بالنسبة للمجر فقد انتهت دولتهم وتمزق شملهم، فأرسل أهل مدينة (بود)[1] العاصمة مفاتيح المدينة للسلطان فاستلمها وسار متجهًا إليها فدخلها في ٣ ذى الحجة وحول كنيستها (ماتياس) كورفن إلى مسجد.

* * *

(١) بعد تشكل بلغار حديثًا سميت عاصمتهم بودابست، وذلك بضم الضفة الأخرى بوست إلى بود.



(٩٥)
معركة استعادة طرابلس
٦-١٣ شعبان ٩٥٨ هـ

تعرضت ليبيا بشكل عام وعاصمتها طرابلس بشكل خاص إلى هجوم الأسبانيين العنيف حيث حوصرت براً وبحراً بمئات السفن البحرية وآلاف الجنود، وبرغم دفاع أهلها المستميت، سقطت في قبضة أسبانيا الصليبية سنة ٩١٦ (١٨ ربيع الآخر ٩١٦ هـ) وارتكب هؤلاء المحتلون فظائع رهيبة ومجازر دموية حاقدة، تمامًا كالتي فعلوها في الأندلس في العهد القريب، فأتوا إلى هذه البلاد ليتموا ما بدأوه من همجية وإرهاب للقضاء على المسلمين وحضارتهم في ديار الإسلام، واستمر احتلالهم لطرابلس سنين عديدة، لكنهم لم ينعموا بالاستقرار فقد كانوا عرضة لهجمات تحريرية مستمرة، وحاول الأسبان التوسع غربًا واحتلال جزيرتي جربا وقرقنة أمام سواحل تونس الشرقية لكنهم فشلوا وتكبدوا أفدح الخسائر (٣٠٠٠) قتيل سوى الأسرى.

ثم تنازلت أسبانيا عن طرابلس لفرسان القديس الذين كانوا يحتلون مالطة بعد أن طردهم السلطان العثماني سليمان القانوني من رودس كما مر في فتح رودس وعاث هؤلاء فسادًا في طرابلس وقتلوا الأنفس دون تمييز بين رجل أو طفل أو امرأة وكان فعلهم هذا يدل على سياسة خططوا لها وهي إبادة المسلمين، وتنبهت الدولة العثمانية لعظيم خطرهم ومحاولة النصارى عمومًا لاحتلال البلاد العربية المغربية (شمال إفريقيا) فعززت أسطولها ودفعت بمائة وخمسين سفينة حربية تحمل معها أكثر من سبعة عشر ألف جندي وستمائة فارس بقيادة «سنان باشا» ومساعدة





عدد من القادة أمثال «مراد أغا» و «طورغود» وهما من الأبطال الشجعان ونزلت الجيوش تحف بطرابلس واحتلت المرتفعات، وقبل بدء الهجوم الكبير على طرابلس حضر على وجه السرعة سفير فرنسا وطلب من سنان باشا فك الحصار عن طرابلس وأن هذا ما يحبذه السلطان، ودعاه باسم الصداقة القائمة بين فرنسا والدولة العثمانية، لكن سنان باشا اعتذر له وقال: إنه ينفذ أمر السلطان فهو الذي وجهه لفتحها، ثم طلب من أعوانه احتجاز السفير الفرنسي كي يؤخر سفره فلا يسعى لدى السلطان مما سيعيق فتح طرابلس التي أوشكت على السقوط، وهكذا أعطى سنان باشا أوامره بالهجوم ليضع الجميع أمام الأمر الواقع، وقاوم فرسان القديس ما وسعهم المقاومة، لكن بسالة المسلمين وتوقهم لطرد هؤلاء الأشرار وقوة النيران من المدفعية العثمانية أدى إلى طلب هؤلاء الفرسان الاستسلام مع نقلهم إلى مالطة سالمين فرفض سنان باشا طلبهم، وشرط أن يدفعوا غرامة كبيرة، فأبوا واستمر القتال ثم لم يجد هؤلاء بدًا من الاستسلام ففتحوا الأبواب ورموا أسلحتهم، وتركوا الحكم عليهم لسنان باشا ودخل سنان باشا بجيشه المظفر وأوقع الجميع في الأسر، كان ذلك في ١٣ شعبان عام ٩٥٨ هـ.

ثم إن سنان باشا أطلق سراح الأسرى ونقلوا على سفن فرنسية إلى مالطة وهكذا تحررت طرابلس، وبقي المسلمون الفاتحون حتى هذا العهد من أرحم الفاتحين لقد مَنّ على هؤلاء الأشرار بإطلاق سراحهم، وكان ينبغي أن يعاقبوا على جرائمهم فيقتلوا جزاء ما اقترفوا، ومع ذلك عاد هؤلاء إلى مالطة ليصبحوا شوكة قاتلة في حلوق المسلمين.

* * *



(٩٦)

معركة وادي المخازن وتسمى القصر الكبير ـ الملوك الثلاثة

٣٠ جمادى الآخرة ٩٨٦ هـ

قائد المعركة من المسلمين: السلطان المغربي أبو مروان عبد الملك المعتصم بالله السعدي ومعه أخوه أبو العباس أحمد المنصور وقائد عثماني هو رضوان.

قائد النصارى: ملك البرتغال سبستيان ومعه ما بين ٨٠ ـ ١٢٥ ألف جندي.

سببها: تولى الملك في المغرب محمد المتوكل على الله، وكان ظالمًا مستبدًا قتل اثنين من إخوته فكرهه الشعب، وكان عمه أحق بالملك منه، فأضمر الشر لعميه عبد الملك وأحمد، ففرا واستنجدا بالعثمانيين ـ السلطان سليم ـ وبعد مدة أنجده السلطان بخمسة آلاف من عسكر الترك ودخلوا معه المغرب لينصروه على محمد المتوكل، ثم هزم عبد الملك محمد المتوكل ودخل فاس، ثم ضم مراكش وتنقل محمد المتوكل بين السوس ومراكش، ثم فر إلى طنجة مستنجدًا بملك البرتغال، وهذا من أسباب المعركة.

عمل السلطان مع أخيه أحمد على إصلاح البلاد وتقويتها من الناحية الحربية والإصلاح التنظيمي حتى ساد العدل بين الرعية.

أما محمد المتوكل المخلوع الذي استنجد بسبستيان ضد عمه فإنه قد أجرى اتفاقًا مع الملك البرتغالي بموجبه يتنازل عن الساحل المغربي كله ويكون له حكم الداخل فقط، كل هذا من أجل رجوعه إلى الحكم.



وعبأ سبستيان قواته للمعركة الكبيرة، وطلب مساعدات من دول أوربا ومن بابا روما، فأمده ملك أسبانيا بعشرين ألفًا من الجند والطليان بثلاثة آلاف جندي، وثلاثة آلاف من الألمان وأربعة آلاف من بابا روما، أما ملك البرتغال فقد حشد اثنى عشر ألفًا، وحشد ألف مركب لنقل هذا الحشد. وانتقلت السفن إلى البر المغربى طنجة ثم أصيلا.

وعبأ السلطان عبد الملك الجيش والمتطوعين وواعد الجميع عند وادي المخازن وظهرت روح الحماس والجهاد عند الشعب المغربي، وأحسوا أن التهاون قد يجعل مصيرهم مثل مصير إخوانهم أهل غرناطة التي كانت نكبتها قريبة العهد وماثلة في أذهان الجميع، وأما السلطان عبد الملك فقد كان في مراكش، وهو مريض وأخوه أحمد في فاس، ووردت الرسائل من عبد الملك إلى أخيه يستحثه على تجهيز ما عنده للوصول إلى وادي المخازن، وتقدم هو بعد أن جمع جيشه، وأرسل إلى سبستيان رسالة لكي يبقى مكانه ولا يتقدم، فيخيف الناس ويجبنوا عن ملاقاته ويخرب مدنهم وزروعهم، فجاء فيها: «إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك وجوازك العدوة ـ مضيق جبل طارق ـ فإن ثبتَّ إلى أن نقدم إليك فأنت نصراني حقيقي شجاع، وإلا فأنت كلب بن كلب...» فأثرت فيه الرسالة وثبت مكانه رغم مشورة أركانه بالتقدم، ثم وصل جيش المغرب وتكامل، وعدته حوالي خمسين ألف مقاتل مع ٣٤ مدفعًا.

في ٣٠ جمادى الآخرة ٤ أغسطس آب، خطب السلطان عبد الملك في جيشه وحثهم على الثبات وذكرهم بالأجر والثواب للمجاهد والشهيد، وبدأت المعركة بالمدفعية ثم بالهجوم وخرج السلطان يجاهد بنفسه رغم مرضه، لكن المرض غلبه فمات، وأخفي المقربون منه الأمر عن جنده كي لايتفرقوا.. وهاجم أحمد المنصور جيش البرتغاليين بهجوم صاعق فلم يقف له البرتغاليون بل هربو وولوا الأدبار وقصدوا قنطرة النهر، لكنها نسفت فارتموا في النهر وغرق من غرق، كما قاتل سبستيان لكن خيالة المغرب صدته ثم هاجمه أحد الفدائيين فصرعه، كما صرع محمد المتوكل إذ سقط في النهر غريقًا، ودامت المعركة أكثر من أربع ساعات خذل الله فيها أعداءه ونصر أولياءه.



مات فيها الملوك الثلاثة: السلطان عبد الملك والملك المتوكل المخلوع وطاغية البرتغال سبستيان.

وقد تضاربت المصادر حول عدد كل من الجيشين، كما اختلف في عدد القتلى، والراجح أن الجيش الأسباني قد أبيد أكثره وأسر الباقي وفر عدة مئات واحتموا في أسطولهم وهربوا عبر البحر.. لكن المهم في هذا، أن البرتغال قد انهارت وأصبحت دولة من دول الصف الثاني بعد أن كانت عظمى.. وهذا يدل على مقدار الخسارة الفادحة التي منيت بها، ويروى أن عم الملك المقتول الكاردينال الريكي قد افتدى الأسرى، ولما وصلوا إلى البرتغال قال لهم: لِمَ لم تأخذوا التطاوين والعرائش والقصر قبل أن يصل ملك المغاربة؟ فقالوا: امتنع عن ذلك الأمير سبستيان، فأمر بهم فأحرقوا جميعًا، حتى لاينتشر الخبر عن حماقة الملك القائد.

❊ ❊ ❊



(٩٧)
معركة بلفنه
٢٠ تموز ١٨٧٧م - ٩ رجب ١٢٩٤هـ

تذكر هذه المعركة لشهرتها وشهرة قائدها العثماني الغازي عثمان باشا وبسالته الحربية ودفاعه عن بلفنه مدة ستة شهور رغم انقطاع الإمدادات عنه. أما مدينة بلفنه فهي ذات موقع استراتيجى مهم عند ملتقى الطرق الموصلة بين مضائق جبال البلقان وبلغاريا ونهر الدانوب، فنزلها عثمان باشا ليسد على الروس طريق القدوم نحو استانبول وأقام حولها الخنادق والحصون وكان عدد جيشه خمسين ألفًا ومعه ٧٧ مدفعًا، وأقام خطته على وجود جيشين عثمانيين آخرين بمثابة الجناحين هاجم الروس بلفنه في ٢٠ تموز - يوليو - فارتدوا عنها بعد أن فقدوا مئات القتلى ثم عادوا في ٣٠ تموز بجيش أكبر وعتاد أكثر، فهزموا وتركوا آلاف القتلى في تلالها وأوديتها، ثم حدث أن نكث العهد أمير رومانيا وتقدم إلى ساحة القتال بمائة ألف محارب، وحضر قيصر روسيا بنفسه، وتولى قيادة الحرب الجنرال تودلين، وفصلوا بلفنه عن بقية الجيوش العثمانية وتم إحكام الطوق حول بلفنه بقوة تزيد على ١٥٠ ألف جندي و ٦٠٠ مدفع، وقاوم عثمان باشا كل الهجمات ومني المهاجمون بخسائر كبيرة لكن المدد كان يعوض الروس عن كل نقص، بينما قوات عثمان باشا محاصرة ليس لها مدد وفي نقص مستمر، ثم رسم عثمان باشا خطة لاختراق حصار الأعداء، فقد كانوا نصبوا حولهم ثلاثة خطوط دفاعية يصعب اختراقها ملئت بالرجال والمدفعية، ولكنه اضطر للقيام بهذه المغامرة لنقص الأقوات والسلاح، فهو أمام خيارين، إما الموت على هذه الحالة، وإما الاستسلام، فأبت

نفسه أن يستسلم، ففي ١٠ ديسمبر ـ كانون الأول ـ أخلت العساكر العثمانية مواقعها وتجمعوا في مكان حدده عثمان باشا ثم خرجوا جميعًا من جهة واحدة كالسهم مهللين ومكبرين فقابلهم العدو بمقذوفاته الجهنمية لكنهم لما يعبأوا بها واستمروا في تقدمهم يشقون طريقهم، فاقتحموا الاستحكامات التي أقامها الروس في مواجهتهم وانهمروا كالسيل الجارف على مدافع الخط الأول والثاني وكادوا يستولون على الخط الثالث والأخير لولا أن أصيب عثمان باشا برصاصة نفذت من ساقه الأيسر وقتلت حصانه، فسقط على الأرض وظن العساكر أنه مات واستولى الفشل على الجنود وأرادوا العودة إلى المدينة لكنهم كانوا قد أخلوها ودخلها من الجهة الأخرى الروس فلاعودة في هذه الحظة، وهنا توقف الجميع بعد أن وجدوا أن المقاومة لاتجدي وأنهم محصورون فرفعوا أعلام الاستسلام، ووقع عثمان باشا في الأسر وهو جريح في ١٠ كانون الأول ١٨٧٧، فعامله الروس معاملة خاصة تقديرًا لبسالته وشجاعته، فبعد شفائه أعادوا له سيفه وكرموه وقال له القيصر اسكندر الثاني: إني أرد لك سيفك علامة على احترامي لك وإكباري لشجاعتك وأجيز لك أن تحمله في بلادي.. لقد قاوم أعتى جيوشى أوربا.

* * *

(٩٨)
معركة أنوال
من ٢١ تموز - ٩ آب ١٩٢١م

قائد المسلمين: الأمير عبد الكريم الخطابي.

قائد الأسبان: الجنرال سيلفستر وعدد جيشه ٤٥ ألف مقاتل.

أسباب المعركة: القضاء على المجاهدين بقيادة عبد الكريم الخطابي واحتلال منطقة الريف المغربي.

تقدم الجنرال سيلفستر من مدينة مليلة المغربية الساحلية باتجاه الداخل محاولاً احتلال منطقة الريف المغربية، فوصل إلى مدينة أنوال، ثم تقدم في الجبال وأصبح وجهًا لوجه أمام الأمير عبد الكريم ودارت معركة حامية بين الجانبين، استخدم فيها الأسبان أسلحتهم الحديثة من مدافع ورشاشات وبنادق ثم أنزل الله نصره على المجاهدين فهزموهم من عدة مواقع فانسحبوا إلى أنوال وهناك حصرهم المجاهدون وشنوا عليهم معركة حامية، واضطرب جيش الأسبان وأسقط في يدي القائد سيلفستر ولم يدر ما العمل مع ما أصاب جنوده من اليأس القاتل، فأصدر أوامره بالإنسحاب من أنوال وكانت الهزيمة الساحقة حيث طاردته قوات عبد الكريم وشتت جنوده فقتل منهم أعداد كبيرة ووقع في الأسر آخرون وأخلوا نتيجة ذلك ١٣٠ موقعًا ما بين أنوال إلى مليلة وفقد القائد سيلفستر ولم يعرف مصيره فقاد فلول المنهزمين الجنرال نافارو الذي استسلم أخيرًا هو وجنوده في ٩ آب وحمل أسيرًا للأمير عبد الكريم وقدرت خسائر الأسبانيين بمقتل «١٥» ألف وأسر «٥٧٠» وغنم المجاهدون ٥٩٦٠٠ بندقية ٣٩٢ مدفعًا رشاشًا ١٢٩ مدفع ميدان، وتعد هذه المعركة أعظم هزيمة لقوات غربية في المستعمرات.

(٩٩)
معركة الرحيبة
٢٨ آذار ١٩٢٧م

قائد المسلمين: عمر المختار ومعه ما يزيد على ٥٠٠ مقاتل.

قائد جيش الإيطاليين: الميجر «باسي» بتخطيط من الجنرال غرازياني.

مكان المعركة: منخفض الرحيبة الواقعة في الجبل الأخضر، معقل المجاهدين.

ظل الجبل الأخضر في ليبيا معقلاً للمجاهدين حيث توفرت فيه شروط مناسبة لإيواء المجاهدين وتخفيهم عن جنود الاحتلال، فكانوا يشنون الغارات ثم يعودون إلى الاختفاء في الجبل الأخضر، وهذا الجبل مرتفع كبير ممتد ما بين برقة وبنغازي بسفوحه الشمالية، وكان دخول هذا المعقل بالنسبة للإيطاليين حلمًا يتمنون تحقيقه مهما بذلوا من ضحايا، لأن سقوطه يعني استسلام المجاهدين والقضاء على كل عمل حربي ضد الطليان، وبالتالي سينعم المحتلون بالهدوء والاستقرار، ورسم الجنرال غرازياني خطة لمفاجأة المجاهدين في عقر دارهم والقضاء عليهم، فحشد تحت قيادة الميجر «باسي» أكثر من ثمانمائة جندي واثني عشر ضابطًا وتسلل هؤلاء ليلاً لمباغتة المجاهدين، لكن عمر المختار ومن كانوا معه من الفرسان الأشداء تصدوا لهذه الحملة وباغتوها قبل أن تباغتهم وقاموا بحركة التفات ذكية حول هذه القوة المدعمة بالآليات والمدافع الرشاشة، ودارت رحى معركة حامية فما أغنى عنهم تفوقهم العددي وكثرة أسلحتهم وذخائرهم، فاختلت صفوفهم ودب اليأس في قلوبهم بعد أن كثرت الخسائر في صفوفهم، ثم حدث التحام بالسلاح الأبيض

فقتل من الإيطاليين عدد كبير وحاول آخرون الفرار والنجاة بأرواحهم فلم يفلحوا، لعدم معرفتهم بمسالك الجبل الأخضر، فسرعان ما كانوا يقعون في كمائن المجاهدين، وهكذا زادت الخسائر ففر «باسي» مع من تبقى من جنوده تاركين قتلاهم وأسلحتهم وذخائرهم في أرض المعركة، فكان عدد القتلى (٣٥٠) قتيلاً، منهم ستة ضباط.

وتعد معركة الرحيبة واحدة من أشهر معارك عمر المختار ضد الإيطاليين، وهي: معركة النخلتين أو الفويهات سنة ١٩١٢، ومعركة وادي جريب سنة ١٩٣١ ومعركة جبل السوداء ١٩٣٠م ومعركة كرسه ١٩٣٠...

* * *

(١٠٠)

معارك العاشر من رمضان

١٣٩٣هـ - ٦ / ١٠ / ١٩٧٣م

لهذه المعارك ميزة خاصة في حروب المسلمين مع اليهود في العصر الحديث فقد خاض العرب قبلها ثلاثة حروب خاسرة مما أعطى انطباعًا لدى العرب عن عدم قدرتهم على قهر اليهود المغتصبين لفلسطين، فميزتها الخاصة إذًا: أنها حرب غيرت مفهوم التفوق اليهودي ورفعت من قيمة الجندي المسلم إذا ما أُحسنت قيادته ودُرِّب التدريب الحديث، فهو بطل مقدام، وعلى كل حال كانت هذه الحرب مختلفة عن الحروب التي سبقتها مع اليهود، لأن العرب هم الذين وضعوا توقيتها فكانت الصدمة الأولى لهم، فباغتوا العدو لأول مرة في هجوم كاسح، وسأذكر في هذه الحرب التى استمرت تسعة عشر يومًا أهم معركتين من معاركها العديدة فمنها ما كان على مستوى الكتيبة والسرية، ومنها ما كان على مستوى الفرق والألوية، ومنها ما كان في الجو على مستوى اشتراك السرب الواحد والأسراب التي فاقت المائتي طائرة، ومنها ما كان في البحر ولكن على مستوى يقل عنه في البر والجو لصغر حجم القوات البحرية من الطرفين المتحاربين، فالمعركة الأولى التي اخترتها معركة الضفة الشرقية لقناة السويس في ١٢ رمضان.

سببها: أن الإسرائيليين أرادوا صد الهجوم المصري الذى باغتهم يوم العاشر من رمضان، حيث كانت معركة العبور لقناة السويس والتي سجل فيها الجندى المسلم قدرة وشجاعة خارقة ضد العدو، فقام الجيش المصري بعبور هذا الحاجز المائى العريض وارتقاء الضفة الشرقية للقناة التي ارتفع فوقها خط بارليف بما يزيد عن



عشرين متراً مع مواقع محصنة ومدفعية متنوعة ودبابات كثيرة، فدحرت القوات المصرية قوات العدو في هذا الخط الدفاعي الحصين واستولت على معظم مواقعه على طول قناة السويس ثم مدت الجسور لمرور الدبابات والآليات التي أخذت مواقعها باتقان على الضفة الشرقية للقناة لتستعد لقفزة جديدة وتطور هجومها في العمق، استفاق العدو من الصدمة الأولى بعد مرور يوم ثم حشد قواته لصد الهجوم في معركة فاصلة وزج في المعركة بأكثر من خمسمائة دبابة لاقتلاع القوات المصرية من شرقي القناة ودحرها للغرب من حيث أتت، ودارت رحى معركة عنيفة على ضفة القناة الشرقية شاركت فيها مختلف الأسلحة من القوات المصرية ضد هجوم الدبابات الشرس، وقيل إن العالم لم يشهد في حروبه الحديثه مثل هذه المعركة وهذه الأعداد الهائلة من الأسلحة الحديثة ـ قد تكون هناك حروب لأعداد أكبر من الدبابات ولكن كانت أسلحتها ليست بهذا المستوى من التدمير ـ ومنيت القوات الإسرائيلية بهذه المعركة بهزيمة منكرة وفقدت أكثر من ثلاثة أرباع دباباتها، وأسر قائد إحدى الألوية كما قتل قائد إحدى الفرق وهو الجنرال البرت ماندلر، ومني الهجوم الإسرائيلي بأفدح الخسائر وتقدمت القوات المصرية عدة كيلو مترات لتعزيز مواقعها.

المعركة الثانية:

معركة الجولان يوم السبت السادس من تشرين الأول، العاشر من رمضان، وفيها حشدت سورية على خط الهجوم ما يزيد على ثمانمائة دبابة ـ قدر العدو عددها بألف ومائتي دبابة ـ وفاجأت إسرائيل على جبهة الجولان بهجوم مباغت في الساعة الثانية وعدة دقائق من بعد ظهر العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣م، وتقدمت هذه الأرتال المجنزرة بسرعة وهي تقتحم مواقع العدو وتدمره، فاجتازت خط الدفاع الأول ملحقة بالعدو خسائر فادحة في الأفراد والعتاد وواصلت القوات السورية زحفها في اليوم التالي أي الحادي عشر من رمضان وكانت على ثلاثة محاور، شمالى وجنوبى وأوسط، ووصلت هذه القوات إلى خط الحدود السابق قبل حرب ١٩٦٧م، وفي أثناء هذا الهجوم حدثت معارك جوية وأصيب الطيران الإسرائيلى بخسائر غير معهودة من قبل إذ كان متفوقًا في الحروب السابقة، فقد

واجه مقاومة عنيفة من الطائرات السورية والصواريخ المضادة أنزلت به خسائر كبيرة، ولعل المعركة الصغيرة في حجمها والمهمة في نوعيتها جديرة بالتنويه هنا وقد سبقت الهجوم الواسع الكبير بعدة ساعات وكانت تستهدف المرصد الإسرائيلى المقام على مرتفعات جبل الشيخ فقد هوجم بعدد من جنود المغاوير ودارت فيه رحى معركة عنيفة بالبنادق والقنابل والسلاح الأبيض وتفوق الجنود السوريون وسيطروا على المرصد وحرموا إسرائيل من اكتشاف الهجوم السوري الكبير بعد أن أزالوا مركز المراقبة، وكان هذا المرصد المرتفع كعش الصقر بمثابة حصن قوي بالغ التحصين.

من الجدير بالذكر أنه قد دارت معارك عديدة بعد اليوم الثاني عشر من رمضان على الجبهتين السورية والمصرية كان في بعضها النصر سجالاً وفي بعضها الآخر لصالح الإسرائيليين بعد أن أمدتهم الولايات المتحدة بالسلاح الفتاك المطور، فحدثت ثغرات في خطوط الدفاع على الجبهة المصرية واختراق وصل إلى مدينة السويس في غرب القناة، واختراق وارتداد للقوات السورية إلى نقطة البداية، وتعقدت المعارك وتداخلت نتائجها وساهمت كثير من الدول العربية في إمداد الجيوش العربية بالرجال والسلاح كالعراق والمملكة العربية السعودية والأردن والكويت والمغرب وقوات من أبناء فلسطين، ثم أوقف مجلس الأمن القتال. ومع كل ما حصل فإن النتائج كانت لصالح الأمة العربية، ولم تخسر إسرائيل في جميع حروبها مع العرب مثل ما خسرته في هذه الحرب فضلاً عن ارتباكها وذعرها من الضربة الأولى وقد كانت تزعم أنها لاتقهر وأن حربها مع العرب مجرد نزهة لجيشها.

ماذا قال الإسرائيليون عن حرب العاشر من رمضان؟

قال موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلي في مؤتمر سري صحفي في ٩ / ١٠ / ١٩٧٣م «لقد قامت لدي قناعة أكيدة بأن العالم العربي قد استيقظ ليشهد عجزنا عن صد القوات المصرية والسورية في آن واحد» وقال أريك رولو: «إن المعارك التي أدهشت ضراوتها قضت على كثير من المعتقدات العسكرية والأساطير التي عرف بتعهدها الزعماء الإسرائيليون في النفوس». وقال مظلي إسرائيلي: «لقد

كانت هذه الحرب تجربة قاسية جدًا، فقد خيل إلينا على جبهة السويس بأن اجتياحًا ضاريًا ضخمًا عنيدًا يكاد يلتهمنا» وقال بارليف صاحب الخط الحصين الشهير على قناة السويس: «إن العرب كانوا مصممين هذه المرة على المجازفة» وقال تقرير لجنة شمعون التي حققت في ارتباك القيادة الإسرائيلية «لقد فاجأ بدء مصر وسورية الحرب - يوم الغفران - في ٦ / ١٠ / ١٩٧٣م في الساعة ١٤ تقريبًا الجيش الإسرائيلي، لأن القيادة العليا السياسية والعسكرية لم تقدر حتى ساعات الصباح الباكر من ذلك اليوم أن حربًا شاملة ستبدأ».

ومع هول الصدمة لدى القيادة الإسرائيلية والنجاح في الهجوم السوري والمصري فإن القيادة العربية لم تستغل النجاح لمزيد من المكاسب، وبقي أن نذكر أن هذه الحروب كانت في عهد كل من الرئيس أنور السادات رئيس جمهورية مصر العربية وحافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية.

❋ ❋ ❋

(١٠١)

معركة غروزني

٢٩ رجب ١٤١٥ هـ - ٣١ كانون الأول ١٩٩٤م

يرجع أسباب هذه الحرب إلى إعلان جمهورية الشيشان برئاسة «جوهر دوداييف» استقلالها الكامل عن روسيا، حيث ظلت مدة طويلة ترزح تحت الاحتلال الروسي مع بقية البلدان المتاخمة لها في بلاد القوقاز.

إن تاريخ هذه البلدان حافل بالصراع مع روسيا في العصر الحديث، فقد حدث أن تسلطت روسيا في عهد القياصرة على هذه المناطق فتصدى لها أهلها ببسالة وحمية، وشهدت عددًا من القادة الذين امتازوا بحربهم للروس أمثال «غازي مولى» و «شامل الداغستاني» الذي قاوم الروس وأجلاهم عن القوقاز مدة ثلاثين سنة إلى أن لجأوا إلى أسلوب التآمر من الداخل حتى قضوا على حركة الشيخ شامل، وبالتالي خضعت هذه المناطق إلى حكم الروس، واستمر الأمر كذلك حتى الحرب العالمية الأولى وانتفاض هذه البلاد، غير أن الأمر عاد إلى سيطرة الروس وذلك بسبب تفكك الدولة العثمانية وتخليها عن نصرة مسلمي القوقاز، واغتنمت هذه المناطق فرصة هزيمة الروس أمام الألمان في الحرب العالمية الثانية، لكن التغيير الذي حدث في مجريات الحرب وهزيمة ألمانيا شجع الروس بزعامة ستالين على شن حرب وحشية في القوقاز متبعًا سياسة الأرض المحروقة فسيطر على هذه المناطق وقام بإرغام شعب الشيشان على الهجرة الجماعية بعد أن أباد معظمه ونفاه إلى مجاهل سيبريا، ورزحت بلاد الشيشان تحت الحكم الروسي حتى عام ١٩٩١م حيث تفكك الاتحاد السوفياتي وبدأت جمهورياته بإعلان استقلالها عن روسيا،

فاعترفت روسيا باستقلال بعضها تحت ضغط الدول الغربية تارة وتدخل الكنيسة تارة أخرى، كما ربطت عدداً من الجمهوريات بنظام كومنولث تابع لروسيا، بيد أن جمهورية الشيشان الصغيرة من حيث المساحة وعدد السكان (١,٣ مليون نسمة) أبت إلا أن تنال استقلالها كاملاً وتتمتع بسيادة حرة، فأعلنت استقلالها عن روسيا، وجرت فيها انتخابات حرة فاز فيها «جوهر دوداييف» ولعل الرغبة في استقلال هذه الجمهورية عن روسيا يكمن في المعاناة التي شهدها الشعب الشيشاني على مدى عقود عديدة من المعاملة القاسية والتنكيل والتشريد والنفي إلى مجاهل سيبريا من قبل الحكومة الروسية، وفي اختلاف الدين، فالشعب الشيشاني شعب مسلم متمسك بعقيدته لايحب الخنوع ولا تربطه بروسيا أية روابط عرقية أو ذكريات حسنة تبقي على الصلة التي تودها روسيا ولو بالقوة والحديد والنار، لذلك كان الإصرار قويًا من الجانبين، جانب يود السيطرة وفرض الهيمنة الدينية والعرقية، وجانب يود التحرر والاستقلال والتخلص من كل أشكال التمييز والقهر، فكانت الحرب هي الحكم بينهما، وهي ليست متكافئة بالطبع. وبالتالي فروسيا هي المعتدية بلا خلاف، لقد وافقت على استقلال أوكرانيا ولاتفيا واستونيا وليتوانيا وأرمينيا وجورجيا وكل هؤلاء من النصارى، أما الجمهوريات الإسلامية فإنها شددت عليها قبضتها وأرهقتها بالمؤامرات فاستسلم بعضها لعمالته وأبت جمهورية الشيشان فأعدت لها روسيا العدة لغزوها، فما إن انتهت من حل بعض مشكلاتها وأزماتها الداخلية حتى حشدت جيشها واستعدت للحرب، فحركت عملاءها للقيام بانقلاب داخل جمهورية الشيشان وأمدتهم بالأسلحة والطائرات لكنهم فشلوا، ثم تقدمت بغزو سافر في ١١ كانون الأول، فلقيت مقاومة شديدة ثم وصلت إلى «غروزني» عاصمة الشيشان واستمرت معارك غروزني أكثر من شهر ونصف أي حتى منتصف شهر شباط ـ فبراير ـ لقد استبسل المجاهدون الشيشان في الدفاع عن عاصمتهم وصدوا هجمات كثيرة للقوات الروسية المدعمة بالمدافع الثقيلة والدبابات الحديثة والطائرات القاذفة، إضافة إلى جيش جرار لم ينقطع مدده رغم الخسائر الفادحة التي شتت عدداً من فرقه، فاضطرت الحكومة الروسية إلى تغييرها وإعادة تجميعها وجلبت مشاة البحرية من أسطول المحيط الهادى والبحر الأسود لحشد المزيد من القوة العسكرية، ولم تسقط غروزني إلا بعد أن دمرت

أحياؤها ومبانيها ودخلتها القوات الروسية بعد أن خسرت ما لا يقل عن عشرين ألف قتيل ومئات الأسرى وأكثر من (٢٢٥) آلية ودبابة وعدة طائرات.

أما خسائر الشيشان فكانت بين المدنيين أليمة لوحشية القصف الروسي وقدرت بأكثر من (٢٤٠٠٠) ما بين طفل وشيخ وامرأة بينما لم يستشهد من المقاتلين الشيشان سوى أقل من ٢٥٠ مقاتلاً.

ومع إجراء مقارنة بين القوتين الروسية والشيشانية، فالفارق بينهما كبير يكفي أن نقول: إن ثلاثمائة مليون روسى يقابلهم (١,٣) مليون شيشاني، وروسيا كما هو معروف دولة عظمى تمتلك أكبر الجيوش البرية في العالم مع عتاد حربي متطور يفوق العد والحصر، ومع ذلك فالشعب الشيشاني صامد أمام هذا الجبروت يصلي العدو ناراً تفت من عضده وتجعل جنده يفرون بل وحتى يتمردون على دولتهم، فهم من شدة رعبهم الذي قذفه الله في قلوبهم لايرغبون في الذهاب إلى بلاد الشيشان ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾[1].

فهو القائل: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[2].

وإذا كانت غروزني قد سقطت بعد أن دمرها الروس بالقصف الوحشي غير مراعين للمدنيين من أهلها، فإن الشيشان قد نقلوا عاصمتهم إلى الجبال مستبسلين صامدين يرجون من الله نصراً مؤزراً على عدوهم واستعادة لكامل ترابهم، رافضين بإصرار عيش الذل والخنوع وسيطرة الكفر، لأن المسلم عزيز، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[3].

* * *

(١) سورة يوسف الآية ٢١.
(٢) سورة البقرة من الآية: ٢٤٩ ـ ٢٥١.
(٣) سورة المنافقون الآية: ٨.





قائمة المراجع

- **أمتي بين حربين** - فؤاد العادل

- **البداية والنهاية** - عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير

- **تاريخ الدولة العلية** - العثمانية . محمد فريد بك المحامي - تحقيق إحسان حقي .

- **تاريخ الطبري** - أبو جعفر بن محمد بن جرير الطبري .

- **تاريخ الفتح في ليبيا** - الطاهر أحمد الراوي .

- **تاريخ المغرب الكبير** - د . عبد العزيز سالم .

- **الحرب العربية الإسرائيلية الرابعة** - جنرال د . ك باليت - ترجمة طلال كيالي .

- **دراسات في تاريخ الأندلس** - د . أحمد مختار العبادي .

- **سيرة النبي** - لأبى محمد عبد الملكْ بن هشام - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

- **الكامل في التاريخ** - عز الدين أبى الحسن علي المعروف بابن الأثير .

- **المختصر في تاريخ البشر** - عماد الدين اسماعيل أبي الفداء .

- **المعارك الحربية علي الجبهة المصرية** - حرب اكتوبر ١٩٧٣ / العاشر من رمضان - جمال حماد .

- **المغازي** - محمد بن عمر بن واقد .

- **نفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب** - أحمد بن محمد المقرى التلمسانى .

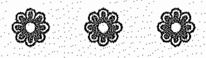



شبكة
الألوكة
www.alukah.net


الجديد
NEW & EXCLUSIVE

المحتويـــات








الجديد
NEW & EXCLUSIVE